سلسلة العقائد

٦

الكفر والمكفرات

احمد عز الدين البيانوني

مكتبة الهدى
حلب - شارع الوزير

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم
لا يؤمنون .

ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم
غِشاوة ، ولهم عذاب عظيم . (٦و٧ - البقرة)



بسم الله الرحمن الرحيم

الكفر والمكفرات

معنى الكفر

الكفر في اللغة معناه : السَّتر والتغطية .

ويسمى الليل « كافراً » لأنه يغطي كل شيء .

والكافر : الزارع ، والجمع كفّار .

قال الله تعالى: كمثَل غيث أعجب الكفار نباتُه (١)

يعني الزّراع ، سُمّوا « كفاراً » لأنهم يغطّون الحب

والكفر في الشرع : نقيض الايمان .

وهو إنكار شيء مما جاء به النبي ﷺ ، ووصل إلينا بطريق يقيني قاطع .

ومن كفر بشيء مما يجب الايمان به يسمى « كافراً »

(١) ٢٩ ـ الفتح .

أنواع الكفر

والكفر ثلاثة أنواع :

« الأول » : الكفر الجهلي .

وسببه الغفلة عن الآيات الدالة على وجود الله تعالى ، ووحدانيته ، والاعراضُ عما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ ككفر العوامّ المشتغلين في الدنيا .

والجهل نوعان : بسيط ومركب :

فالبسيط أصحابه كالأنعام ، بل هم أضل .

وعلاجه التعلم .

والمركّب هو اعتقاد بالقلب غير مطابق لما هوعليه .

وصاحبه يجهل الأمر ، ويجهل أنه يجهل .

وهو شرٌّ من الأول ، وقلّما يقبل العلاج .

« والثاني » من أنواع الكفر : الكفر الجحوديّ العنادي .

ومن أسبابه الاستكبار .

ككفر فرعون وملئه .

قال الله تعالى : فاستكبروا وكانوا قوماً عالين .

فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا ـ وهما موسى وهارون ـ وقومهما لنا عابدون .(١)

وقال تعالى : وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً .(٢)

ومن أسباب هذا النوع من الكفر :

حبُّ الرئاسة في الدنيا والخوف من زوالها :

ككفر هرقل ملك الروم بعدما ظهر له صدق النبي محمد ﷺ ، من أجوبة أجابه بها أبو سفيان قبل إسلامه ، عن إسئلة كثيرة سأله عنها .

فلما عَرَضَ على أساقفته الاسلام نفروا منه ، وبادروا إلى الأبواب معرضين يريدون الخروج .

---

(١) ٤٦و٤٧ ـ المؤمنون .   (٢) ١٤ ـ النمل .

فأمر هرقل بردهم ، وقال : أردت أن أختبركم .

وصدّه حب الملك والرئاسة عن اتّباع النبي ﷺ

وعلاج حب الرئاسة أن ينظر الانسان إلى الدنيا وكدورتها ، ليعلم أن ما لا يبقى ولا يصفو ، لا ينبغي التعلّق به ولا الحرص عليه .

*

ومن أسباب هذا النوع من الكفر أيضاً : خوف الذمّ والتعيير : ككفر أبي طالب .

روي أنه قال أبياتا يخاطب بها النبي ﷺ ، ومنها :

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثَمَّ أمينا

وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامةُ أو حذارُ مسبّةٍ لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

ويلزم من خوف الذم والتعيير ، حبُّ المدح والثناء .

وقد يكون ذلك سبباً من أسباب هذا النوع من الكفر .

« والثالث » من أنواع الكفر : الكفر الحُكْمي :

وهو ماجعله الشارع أمارة ـ أي علامـــة ـ على التكذيب .

كالاستخفاف بما يجب تعظيمـــه من الله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، ومافيه من الحشر والحساب ، ووزن الأعمال ، والصراط ، والجنة ، والنار .

وكالاستخفاف بالشريعة وعلومها : كعلم التوحيـد ، والتفسير ، والحديث والفقه ...

فمن استخفّ بشيء من ذلك ، فقد حكم الشارع بكفره ، سواء أكان الاستخفاف بالقول أوبالفعل .

والرضا بكفر نفسه كفرٌ مطلقاً ، وبكفرِ غيره كفر إن كان استحساناً له .

قد يطلق الكفر على غير الكفر بالله

وقد يطلق الكفر على غير الكفر بالله تعالى ، ككفر النعمة والحقوق .

قال الله تعالى ، وإن تعُدّوا نعمة الله لاتحصوها ،

إن الانسان لظلومٌ كفّار (١) .

وفي الحديث الشريف : يامعشر النساء تصدّقن ، وأكثِرْنَ من الاستغفار ، فاني رأيتكنّ أكثر أهل النار .

فقالت إمرأة منهن جَزْلة - أي فصيحة :

ومالنا يارسول الله أكثر أهل النار ؟!

قال : تُكثرْنَ اللعن ، وتكفرْنَ العشير - يعني الزوج - ومارأيت من ناقصات عقل ودين أغلبَ لذي لُبّ - أي عقل - منكن .

قالت : يارسول الله ! ومانقصان العقل والدين ؟

قال : أما نقصان العقل ، فشهادة إمرأتين تعدِل شهادة رجل .

فهذا نقصان العقل .

وتمكث الليالي ماتصلي ، وتفطر في رمضان ، فهذا نقصان الدين .(٢)

---

(١) ٣٤ - ابراهيم .　(٢) مسلم .

أصول المكفرات

ترجع المكفرات إلى أصول ثلاثة :

اعتقادية ، وقولية ، وعملية .

١ ـ المكفرات الاعتقادية

كانكار الخالق سبحانه ، أوإنكار صفة من صفات الكمال فيه ، أووصفه بما هو منزّه عنه :

كاتخاذ الزوجة والولد .

أواعتقاد أنه جسد من الأجساد .

أو اعتقاد عجزه في شيء .

أوأنه غير محيطٍ علماً بكل شيء .

أوأنه غير عادل في أحكامه ، أوفي قضائه وقدره ، ونحو ذلك ...

وكانكار الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

أوتكذيبهم فيما ينقلون عن الله تعالى .

أوإنكار عموم رسالة نبينا محمد ﷺ .

أوإنكار أنه خاتم النبيين ، ونحو ذلك ...

وكانكار الملائكة أوالجن .

أو الكتب السماوية إجمالاً .

أوإنكار القرآن الكريم ، ولو آية منه .

وكانكار يوم القيامة والدار الآخرة ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنار ...

وكانكار فرضية شيء من فروض الاسلام :

كالصلاة أوالزكاة أوالصيام أو الحج أوالجهاد ...

وكانكار حرمة شيء من محرّمات الاسلام :

كالربا أو الزنى أوالقتل أوالخمر أوالميسر ، أوسفور النساء ...

وكاعتقاد حرمة شيء من المباحات في الاسلام ، مخالفةً لحكم الله فيها .

كتحريم أكل لحوم الانعام باسم الرأفة والرحمة ...

فهؤلاء وأمثالهم كافرون ، تجري عليهم أحـكام الاسلام في الـكافرين .

وإن ظهرتْ منهم هذه العقـائد المكفرة بعد إعلان الاسلام كانوا من المرتدين ، وأُجريت عليهم أحـكام أهل الردة المذكورة في كتب الفقه .

٢ ـ المكفّرات القولية

هي كل قول فيه اعتراف بعقيدة مكفّرة .

أوفيه جحودٌ لعقيدة من عقائد الاسلام .

أوفيه استهزاء بالدين في عقائده أوأحكامه .

ومن ذلك سبُّ الخالق سبحانه ، أوسبّ الرسل ، أوالكتب السماوية ، أوسب الدين .

أوالاعتراض على عدل الله تبارك وتعالى ، في قضائه وقدره ، واتهامه بالجور سبحانه .

فمَن قال قولاً من ذلك ، وهو في حالة يؤاخذ بها على أقواله ، فقد كفر .

فان كان كافراً أصلياً ، فقد دلّ على نفسه بذلك .

وإن كان من قبلُ مسلماً ، أصبح بذلك مرتداً عن الاسلام ، تجري عليه أحكام المرتدين .

أما الذي لايؤاخـــذ على أقواله : الغائب العقل ، والمكرَه ، فلا يكفر بذلك ، ولانحكم عليه بالكفر ، لقيام العذر الظاهر فيه .

قال الله تعالى : من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالايمـان ، ولكن من شـــرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم(١)

وفي الحديث الشريف : إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وماأستُكرهوا عليه .(٢)

أي تجاوز عنهم إثم الخطـأ والنسيان وما استكرهوا عليـــه .

وأما حكم الخطأ والنسيان والمكره عليه فغير مرفوع .

فلو أتلف المسلم شيئاً خطأ ، أو ضاعت منه الوديعة

(١) ١٠٦ ــ النحل . (٢) ابن ماجه والبيهقي .

نسياناً ضمن .

ويستثنى من الاكراه الاكراه على الزنى والقتل ، فلايباحان بالاكراه .

ويستثنى من النسيان ماتعاطى الانسان سببه ، فانه يأثم بفعله لتقصيره .

ومعلوم أن شرط التكليف والمؤاخذه على الأقوال والأفعال العقل والبلوغ .

٣ ـ والمكفرات العملية

هي كل عمل يعتبر علامة ظاهرة على عقيدة مكفّرة كتمزيق المصحف مع قرينة الاهانة ، أو إلقائه في القاذورات .

وكتعليق الصليب على الصدر ، ووضع كل ماهو من شارات الكفر الخاصة ، مع قرينة التعظيم والاستحباب .

فمن فعل شيئاً من ذلك عالماً بأنه مكفّر ، حكمنا عليه بالكفر ، وأجرينا عليه أحكام الكافرين الأصليين ،

إن لم يسبق له إعلان إسلام .

وإن كان مسلماً ، أومن أسرة إسلامية ، أجرينا عليه أحكام المرتدين .

الشرك من الكفر

من جعل مع الله إلهاً آخر ، أوأشرك معـــه في الربوبية رباً آخر ، أو عبّد مع الله معبوداً آخر ، فقـد كفر بالله عز وجل .

قال الله تعالى : لقد كفر الذين قالوا : « إن الله ثالث ثلاثة » .

ومامن إله إلا إله واحــــد ، وإن لم ينتهوا عمـا يقولون ، ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم .(١)

وقال تعالى : واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا .(٢)

ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما .(٣)

---

(١) ٧٣ ـ المائدة .
(٢) ٣٦ ـ النساء .
(٣) ٤٨ ـ النساء .

ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدا .(١)

إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة .(٢)

قل : تعالوا أتلُ ماحرمّ ربكم عليكم : أن لاتشركوا به شيئا .(٣)

أمر الله تعالى العباد بعبادته وحده لاشريك له ، فانه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع أحوالهم . فهو المستحق منهم أن يوحدّوه ولايشركوا به شيئاً من مخلوقاته .

وفي الحديث القدسي : قال الله تعالى :

كذّبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك .

وشتمني ، ولم يكن له ذلك .

فأما تكذيبه أياي ، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان .

وأما شتمه إياي ، فقوله : « لي ولد » .

---

(١) ١١٦ ـ النساء . (٢) ٧٢ ـ المائدة .
(٣) ١٥١ ـ الانعام .

فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولاولد .(١)

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال .

كنت رِدْف الرسول ﷺ ـ أي راكباً خلفه ـ ليس بيني وبينه إلا مُؤْخِرة الرحل ـ أي مُؤَخّرة الرحل ـ

فقال : يامعاذ بن جبل !

قلت : لبيك رسول الله وسعديك .

ثم سار ساعة ، ثم قال : يامعاذ بن جبل !

قلت : لبيك رسول الله وسعديك .

ثم سار ساعة ، ثم قال : يامعاذ بن جبل !

قلت : لبيك رسول الله وسعديك .

قال : هل تدري ماحق الله على العباد ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فان حق الله على العباد :

أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً .

(١) البخاري .

ثم سار ساعة ، ثم قال : يامعاذ بن جبل !

قلت : لبيك رسول الله وسعديك .

قال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : أن لا يعذبهم . (١)

الشرك نوعان

والشرك نوعان : جليّ وخفيّ ، أوأكبر وأصغر .

فالجليّ وهو الأكبر : أن يُعبَد مع الله إله آخر .

والخفيّ وهو الأصغر : الرياء .

وهو إرادة نعم الدنيا بعمل الآخرة .

وضده الاخلاص .

فمن أراد بعمله ثواب الدنيا ، عُجّل له الثواب ،

---

(١) مسلم .

ولم يُنقَص شيئاً في الدنيا ، وله في الآخرة العذاب ، لأنه جرّد قصده إلى الدنيا .

ولهذا جاء في الحديث الشريف :

إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل أمرىء مانوى (١)

فالعبد إنما يعطى على وجه قصده ، وبحكم ضميره .

وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل ملة .

مذمة الرياء

وقد ذم الله تعالى المنافقين ، فوصفهم بالرياء فقال :

يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا (٢)

وفي الحديث الشريف : يقول الله تعالى :

أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري ، تركته وشِركَه .(٣)

---

(١) البخاري ومسلم . (٢) ١٤٢ ـ النساء . (٣) مسلم .

إذا جمع الله الأولين الآخرين ليوم القيامة ، ليوم لاريب فيه ، نادي منادٍ :

من أشرك في عمل عمله لله عز وجل أحداً ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فانه الله أغنى الشركاء عن الشرك .(١)

وفي الحديث الشريف : إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه :

ـ رجل استُشهد ، فأُتيَ به ، فعرّفه نعمتة فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدت .

قال ، كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال ، جريء .

ـ أي شجاع ـ فقد قيل .

ثم أُمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار .

ـ ورجل تعلم العلم وعلمّه ، وقرأ القرآن ، فأُتي به ،

(١) ابن ماجه .

فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء . فقد قيل .

ثم أُمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار .

- ورجل وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأُتي به ، فعرّفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : ماتركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت لك فيها .

قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد . فقد قيل .

ثم أُمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي

في النـار .(١)

وفي حديث آخر : من سمّع سمّع الله بـه ، ومن يرائي يرائي الله به .(٢)

ومعناه : أن من أظهر عمله للنـاس رياء ، فضحه الله يوم القيامة .

ومن أظهر للناس العمل الصالح ليعظُم عندهم ، أظهر الله سريرته على رءوس الخلائق .

وفي حديث آخر : من تعلمّ علما مما يُبتغى – أي يقصد – به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا ، لم يجـد عَرْف الجنة – أي ريحها – يوم القيامة .(٣)

والعَرَض : متاع الدنيا وحطامها .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة على أصحـابه ، وهم يتذاكرون المسيح الدجال .

---

(١) مسلم . (٢) البخاري ومسلم . (٣) أبو داود .

فقال ألاأخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟

قالوا : بلى يارسول الله .

فقال : الشرك الخفي : أن يقوم الرجل ليصلي ، فيزيّن صلاته لما يرى من نظر رجل .(١)

وفي الحديث الشريف :

إن أخوفَ ما أتخوّف على أمتي الاشراك بالله ، أما إني لست أقول . يعبدون شمساً ولاقمرا ولاوثنا ، ولكنّ أعمالاً لغير الله ، وشهوة خفية .(٢)

وسئل الحسن رضي الله عنه عن الاخلاص والرياء .

فقال . من الاخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ، ولاتحب أن تكتم سيئاتك ، فان أظهر عليك حسناتك ، تقـــول :

هذا من فضلك وإحسانك ، وليس هذا من فعلي ،

---

(١) ابن ماجه . (٢) الترمذي .

ولامن صنيعي .

وتذكر قوله تعالى : فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملاً صالحاً ، ولايشرك بعبادة ربه أحدا .(١)

والذين يؤتون ما آتو ، وقلوبهم وجلة ، أنهم إلينا راجعون .(٢)

أي يؤتون الاخلاص ، وهم يخافون أن لايقبل منهم .

وأما الرياء : فهو طلب حظ النفس من عملها في الدنيا .

قيل له كيف يكون هذا ؟

قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة ، فهو رياء .

قد يفضي الرياء الى الاستهزاء

قال العلماء رضي الله عنهم : قد يفضي الرياء

---

(١) ١١٠ ـ الكهف . (٢) ٦٠ ـ المؤمنون .

بصاحبه إلى استهزاء الناس به .

كما حُكي أن طاهر بن الحسين قال لعبدالله بن المروزي : منذ كم صرتَ إلى العراق ياأبا عبدالله ؟

قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة ، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم .

فقال : ياأبا عبد الله : سألناك عن مسألة ، فأجبتنا عن مسألتين .

وحكى الأصمعي أن أعرابيا صلى فأطال ، وإلى جانبه قوم .

فقالوا : ماأحسن صلاتك ؟

فقال : وأنا مع ذلك صائم .

دواء الرياء

ودواء الرياء إخفاء العمل الذي تميل النفس إلى إظهاره ، إلا مالزم إظهاره : كالصلاة مع الجماعة ، والجمعة

وأداء الزكاة المفروضة ...

وفي الحديث الشريف : أن رسول الله ﷺ ذَكرَ الشرك ، فقال :

هو فيكم أخفى من دبيب النمل .

وسأدلك على شيء ، إذا فعلته ، أذهب عنك صغار الشرك وكباره .

تقول : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لاأعلم ـ تقولها ثلاث مرات ـ .(١)

وقيل لبعضهم : مادواء الرياء ؟

قال : كتمان العمل .

قيل له : فكيف يُكتم العمل ؟

قال : ما كُلّفتَ إظهاره من العمل ، فلا تدخل فيه إلا بالاخلاص ، وما لم تُكلّف إظهاره ، أحبُّ أن لايطلع عليه إلا الله .

---

(١) الترمذي .

قال : وكل عمل اطلع عليه الخلق ، فلا تَعُدُّه من العمل .

أما من اطلع الله عليه خلقه ، وهو لايحب اطلاعهم عليه ، فيُسَرُّ بصنع الله وبفضله عليه ، فسروره بفضل الله طاعة .

كما قال تعالى : قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ...(١)

قيل لرسول الله ﷺ : أرأيت الرجل الذي يعمل العمل من الخير ، ويحمده الناس عليه ؟

قال : تلك عاجل بشرى المؤمنين .(٢)

نسبة الفعل لغير الله كفر

ومن الكفر نسبة الفعل لغير الله استقلالاً .

عن زيد بن خالد الجُهَني رضي الله عنه أنه قال :

---

(١) ٥٨ ــ يونس . (٢) مسلم .

صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثْر السماء - أي بعد مطر - كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال :

هل تدرون ماذا قال ربكم ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر .

فأما من قال : « مُطرنا بفضل الله ورحمته » فذلك مؤمن بي ، كافر بالكوكب .

وأما من قال : « مُطرنا بنوء كذا وكذا » فذلك كافر بي ، مؤمن بالكوكب .(١)

الناس فريقان : مؤمن وكافر

خلق الله تعالى الخلق ، وخلق بحكمته الشيء وضده .

فقدّر الايمان والكفر ، وجعل في الناس المؤمن

---

(١) مسلم .

والكافر ، كما قدر الهداية والضلال ، والطاعة والمعصية ، والنور والظلام ...

وقدّر الحسن والقبيح ، والطول والقصر ، والعقل والحمق ، والفقر والغنى ...

وفاضل بين ماخلق حتى في المآكل والمشارب .

قال عز وجل بعد ذكر بعض النعم :

ونفضّل بعضها على بعض في الأكل .(١)

فالثمار والزروع مختلفة في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها وخصائصها :

هذا في غاية الحلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وذاك في غاية المرارة .

وهذا أبيض ، وهذا أسود ، وذاك أزرق ، والآخر أصفر ...

هذا غذاء نافع ، وهذا دواء ناجع ، وذاك سمٌّ ذقع

(١) ٤ ـ الرعد .

وكذلك الزهور ، مختلفـــة في أشكالها وألوانهـا وروائحها وخصائصها ...

مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة ، وهوالهواء .

فهذا وأمثاله آيات واضحات دالة على الفاضل المختار ، الذي فاوت بين الأشيـاء بقـــدرته ، وخلقها كما أراد ، وخص كلاً منها بخصائص .

وكذلك فضل الله تعالى الانسان على الحيوان :

قال تعالى : ولقد كرّمنا بني آدم ...

وفاضل بين الناس في الظواهر والبواطن ...

قال تعـالى : والله خلقـكم ، فمنـكم كافـر ومنـكم مؤمن ...[(٢)]

أي هو الخالق لـكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلابدّ من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهـو الشهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم أتم الجزاء .

(١) ٧٠ – الاسراء . (٢) ٢ ـ التغابن .

خلق الله تعالى الانسان وقال فيه :

إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً .(١)

أي بيّنّا له وعرّفناه طريـــق الهدى والضلال ، والخير والشر ، ببعث الرسل ، فـآمن أوكفر .

وهذا مثل قوله تعالى : وهديناه النجدين .(٢)

أي بيّنّا له السبيل إلى الشقاء والسعادة .

ـ وإنك لتقرأ كتاب الله تعالى عز وجل ، فترى فيه من مقدّراته العجب العجاب :

فامرأة نوح وامرأة لوط زوجتان لرسولين كريمين ، كانتا كافرتين .

فما وافقتا على الايمان ، وماصدّقتـا بالرسالة ، فـلم تجد قرابتها شيئا ، ولادفعت عنها محذورا !

وامرأة فرعون كانت مؤمنة ؟

قال تعالى : ضرب الله مثلاً الذين كفروا امرأة نوح

(١) ٣ ـ الانسان . (٢) ١٠ ـ البلد .

وامرأة لوط ، كانتـا تحت عبدين من عبـادنا صالحين ، فخانتاهما ـ أي في الايمان ـ فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين .

وضرب الله مثلاً الذين آمنو امرأة فرعون إذ قالت :

ربِ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنـة ، ونجّني من فرعون وعمله ، ونجّني من القوم الظالمين .[١]

كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، وهدى الله تعالى امرأته إلى الايمان ، وقدّر لها السعادة .

ضربها الله تعالى مثـلاً المؤمنين ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل ، لايؤاخذ أحداً إلا بذنبه .

ـ وقال تعالى في نوح عليه السلام وولده الذي كفر ، وكان من المفرقين :

ونادى نوح ربـه فقال : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين .

---

(١) ١٠و١١ ـ التحريم .

قال : يانوح إنه ليس من أهلك ، إنه عملٌ غير صالح ...(١)

نفى عنه القرابة بسبب كفره ، ولم ينفعه أنه ولد رسول كريم ، وهو من أولي العزم من الرسل .

ـ وقال تعالى في إبراهيم عليه السلام ، ودعوته أباه إلى الايمان ، وإصرار أبيه على الكفر :

وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟؟

إني أراك وقومك في ضلال مبين .(٢)

فلم يؤمن بالله تعالى ، مـــع تلطّف إبراهيم به ، ودعوته إياه إلى الايمان ، بأسلوب النصح الخالص ، والرقة البالغة ، والأدب الرفيع :

قال تعالى : واذكر في الكتاب إبراهيم ، إنـه كان صدّيقاً نبيا .

إذ قال لأبيه : ياأبتِ لمَ تعبدُ مالايسمع ولايبصر ،

---

(١) ٤٧ ـ هود .   (٢) ٧٤ ـ الانعام .

ولا يغني عنك شيئا ؟

يا أبتِ إني قد جاءني من العلم مالم يأتك ، فاتبعني أهدِك صراطاً سوياً .

يا أبتِ لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا .

يا أبتِ إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان وليا .

فأجابه أبوه الجواب الجافي ، وهدده بالرجم والهجر :

قال : أراغبٌ أنت عن آلهتي ياإبراهيم ؟

لأرجمنّك واهجرني ملياً .(١)

ـ ونبينا محمد ﷺ ، وهو خاتم النبيين ، وحبيب رب العالمين ، لم يؤمن به أبو لهب ، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة « اللهب » قرآناً يتلى إلى يوم القيامة .

وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالجهر في

(١) ٤١و٤٦ ـ مريم .

الدعوة ، فخرج إلى البطحـاء ، فصعد الجبل ، فنادى : ياصباحاه !

فاجتمعت إليه قريش ، فقال :

أرأيتم إن حدثتـكم أن العدو مصبّحـكم أوممسّيكم ، أكنتم تصدقوني ؟

قالوا نعم .

قال : فاني نذير لـكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ، تبّاً لك ـ أي هلاكا ـ

فأنزل الله تعالى ؛ تبت يدا أبي لهب وتبّ .(١)

وعن ربيعة بن عبّاد ، وكان جاهلياً فأسلم ، قال :

رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز ، وهو يقول :

يأيها الناس ! قولوا : « لاإله إلا الله » تفلحوا .

---

(١) سورة اللهب . والحديث رواه البخاري .

والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ، ذو غديرتين يقول :

« إنه صابيء كاذب » يتبعه حيث ذهب .

فسألت عنه فقالوا هذا : عمه أبو لهب .(١)

ـ وسلمان الفارسي رضي الله عنه ، خلّف المجوسية وراء ظهره ، وقطع الفيافي والقفار ، ساعياً وراء الايمان ، والتقى برسول الله ﷺ ، فـآمن به ، وقرّبه ﷺ ، وأدناه :

خطّ رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب ، حتى بلغ المذاحج ـ اسم مكان ـ فقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً .

فقال المهاجرون : سلمان منا .

وقال الانصار : سلمان منا .

فقال ﷺ : سلمان منا أهل البيت .(٢)

---

(١) أحمد . (٢) الطبراني .

وفي هذا إكرامٌ بالغ ، وفخار لسلمان عظيم .

- وأبو عبيدة بن الجراح ،وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، قتل أباه كافراً يوم بدر .

- وأبوجهل كان من ألد أعداء الاسلام ، وقُتل كافراً يوم بدر ، وأسلم ابنه عكرمة رضي الله عنه .

- وعبد الله بن أُبيّ بن سلول ، كان رأس المنافقين في المدينة ، وابنـــه عبد الله من سادات الأنصار المؤمنين الصادقين رضي الله عنه .

- وأمثال هذا كثير في عصر الصحابة رضي الله عنهم وفي كل عصر ، إلى يومنا هذا .

ويزول دهشك وعجبك إذا عرفت أن الله تعالى هو الذي قدّر الايمان والكفر والسعادة والشقاء .

ففي الحديث الشريف : إن أحدكم يُجمع خلقه في في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثـــل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك .

ثم يُرسَل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات :

بكتبِ رزقه وأجله وعمله ، وشقيٌ أوسعيد .

فوالذي لاإله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى مايكون بينه وبينها إلاذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها .

وإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار ، حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .(١)

ألا إن بني آدم خُلقوا على طبقات شتى :

فمنهم من يولد مؤمناً ، ويحيا مؤمناً ، ويموت مؤمناً .

ومنهم من يولد كافراً ، ويحيا كافراً ، ويموت كافراً .

ومنهم من يولد مؤمنا ، ويحيا مؤمنا ، ويموت كافراً .

---

(١) البخاري ومسلم .

ومنهم من يولد كافراً ، ويحيا كافراً ، ويموت مؤمناً ..(١)

وفي الحديث الشريف : إن الغلام الذي قتله الخضر ، طُبِع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفرا .(٢)

ذلك هو الغلام الذي قال الله تعالى فيه في قصة موسى والخضر عليهما السلام .

فانطلقا ، حتى إذا لَقِيا غلاماً فقتله .

قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟!

لقد جئت شيئاً نُكرا .(٣) ـ أي منكرا ـ

إلى أن قال : وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ، فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا .

فأردنا أن يُبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقربَ رُحما (٤)

---

(١) الترمذي . (٢) مسلم . (٣) ٧٦ ـ الكهف .
(٤) ٨٢و٨٣ ـ الكهف .

وكم يصدّق هذا ، الواقعُ المشاهد في كل عصر !

ـ كان لي رفيق في الصف السابع ، أقبل على التدين إقبالاً عجيباً ، وكان من القلة المصلين بين الطلاب ، وكان لايكاد يكلم أحداً من رفاقه إلا إياي . وغلب عليه حب التقشف ، وهو ابن نعمة .

وقضيت معه سنتين وهو على هذه الحال ، ثم افترقت بنا سبل الدراسة ، وغاب عني وغبت عنه ، إلى أن التقينا في صف الشهادة الثانوية ، فاذا الوجه غير الوجه الذي أعرف ، فسلمت عليه ، وسألته عن حاله ، وقلت له : كأنك تغيرت !

فأجاب بهذا اللفظ : كنا غلطانين .

وتابع الدراسة ، وعاش بلا صلاة ولادين ، وأظنه التحق بالملاحدة الملاعين .

ـ وحُدثت أن رجلاً قضى من العمر مايزيد على الستين ، في خمور وفجور ، لايعرف صلاة ولاصياماً ، فلما أقبل رمضان ذات سنة ، أدركته نفحة من

ربه ، كشفت الغشاوة عن قلبه ، فأعلن توبته ، وأقلع عن خمره وفسقه ، وشرع يصلي لاتفوته صلاة ، ودخل رمضان ، فاستقبله بالصيام والقيام ، ثم لم ينسلخ رمضان حتي توفي رحمه الله تعالى .

فسبحان الحكيم العليم ، مقدّر الأمور على مقتضى علمه وحكمته !

الدرس الأول

اكثر الناس كافرون

١٦/٤/١٤٠٢هـ

قال الله تعالى : فما آمن لموسى إلا ذرّية من قومه ، على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم .(١)

وقال تعالى : وأوحيَ إلى نوح : أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .(٢)

وما آمن معه إلا قليل .(٣)

هذا ، وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى الايمان .

---

(١) ٨٣ ـ يونس . (٢) ٣٦ ـ هود . (٣) ٤٠ ـ هود .

وقال تعالى لنبينا ﷺ :

وإن تُطع أكثر من في الارض ، يضلوك عن سبيل الله .(١)

وسمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول في دعائه :

اللهم اجعلني من عبادك القليل .

فقال له عمر : ماهذا الدعاء ؟!

فقال : أردت قول الله عز وجل :

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ماهم .(٢)

فقال عمر معاتباً نفسه : كل الناس أفقه منك ياعمر .

وفي الحديث الشريف : والذي نفسي بيده ، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة .

وذلك أن الجنة لايدخلها إلا من نفسٌ مسلمة ، وما أنتم من أهل الشرك ، إلا كالشعرة البيضاء في جلد

---

(١) ١١٦ ــ الانعام .   (٢) ٢٤ ــ ص .

الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الابيض .(١)

الكفر أعظم الذنوب

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال :

سألت رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟

قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك .(٢)

- وفي الحديث الشريف : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟

الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، وقول الزور .(٣)

- اجتنبو السبع الموبقات - يعني المهلكات .

قيل يارسول الله وماهن ؟

قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي

---

(١) البخاري ومسلم .   (٢و٣) مسلم .

حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .. (١)



(١) مسلم .

النفاق

النفاق أقبح أنواع الكفر

تعريفه

النفاق : هو إظهار الانسان غير مايضمر .

وهو مأخوذ من النافقاء ، وهو حجر اليربوع .

فاليربوع له جحر يقال له : النافقاء .

وآخر يقال له : القاصعاء .

وذلك أنه يخرق الأرض ، حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض ، أرقّ التراب ، فاذا رابه ريب ، دفع ذلك التراب برأسه فخرج .

فظاهر جُحره تراب ، وباطنه حُفَر .

وكذلك المنافق ، ظاهره إيمان ، وباطنه كفر .

قال الله تعالى : ومن الناس من يقول : « آمنا

بالله واليوم الآخر ، وماهم بمؤمنين .(١)

والنفاق أقبح أنواع الكفر ، لأنه كفر ومخادعة وكذب .

قال الله تعالى : يخادعون الله والذين آمنوا ، ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون .(٢)

والمنافقون جماعة من عرب المدينة ، وماحولها أعمى الله بصائرهم ، فأظهروا الاسلام ، وأخفوا الكفر خوفاً على حياتهم .

قال الله تعالى : وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدوا على النفاق ـ أي لجّوا فيه وأبوْا غيره ـ لاتعلمونهم ، نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ـ أي بالأمراض في الدنيا ، وعذاب الآخرة ـ ثم يُرَدّون إلى عذاب عظيم .(٣)

وكان رأس هذه الجماعة عبد الله بن أبيّ بن سلول

---

(١) ٨ ـ البقرة . (٢) ٩ ـ البقرة .
(٣) ١٠١ ـ التوبة .

الخزرجي ، الذي كان مرشحاً لرياسة أهل المدينـة ، قبل هجرة رسول الله ﷺ اليها .

ولاشك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكافرين الآخرين ، لأن المنافقين يدخلون بين المسلمين ، فيعلمون أسرارهم ، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم ، كما حصل ذلك مراراً .

وكان النبي ﷺ يقبل ماظهر ، ويترك لله مابطن ، ومع ذلك فكان يحذرهم ، ولايأمنهم في عمل .

ولما كان كفر المنافقين أقبح الكفر ، قال الله تعالى فيهم :

إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار .(١)

والنار دركات سبع ـ أي طبقات ومنازل ـ

وكل مانسافل درك ، وكل ماتعالى درج .

فالجنة درجات ، والنار دركات .

(١) النساء ـ ١٤٥ .

وفي الحديث الشريف : في الجنة مئـــة درجة ، مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض .(١)

وقال الله تعالى : وَعَـدَ الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيهـا ، هي حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم .(٢)

إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا .(٣)

من أوصاف المنافقين

المكر والخديعة

قال الله تعالى في ذمهم : الذين يتربّصون بكم ـ أي ينتظرون بكم ـ الدوائر ، فان كان لكم فتـــح من الله ـ أي غلبة على اليهود وغنيمة ـ قالوا : ألم نكن معكم ؟

وإن كان للكافرين نصيب ـ أي ظفر ـ قالوا :

ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين !

(١) البخاري والترمذي . (٢) ٦٨ ـ التوبة .
(٣) ١٤٠ ـ النساء .

ـ أي ألم نغلب عليكم حتى هابكم المسلمون ، وخذلناهم عنكم ـ ؟

ثم قال تعالى : إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا .

مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء (١)

التثاقل عن الطاعة

وفي الحديث الشريف : إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة والصبح .(٢)

لأن العتمة ـ وهي العشاء ـ تأتي وقد أتعبهم عمل النهار ، فيثقل عليهم القيام إليها .

وصلاة الصبح تأتي والنوم أحب إليهم من كل مفروح به ، ولولا السيف ماقاموا .

---

(١) ١٤١ـ١٤٣ ـ النساء . (٢) البخاري ومسلم .

وفي رواية : لو يعلمون مافي العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا .(١)

الكذب والحلف الكاذب

ـ وقد أنزل الله تعالى في المنافقين سورة كاملة من القرآن الكريم اسمها : « سورة المنافقين » ذمّهم فيها أشد ذمّ .

قال تعالى : إذا جاءك المنافقون قالوا : « نشهد إنك لرسول الله » والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون .

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال :

كنت مع عمي ، فسمعت عبد الله بن أبيّ ـ المنافق ـ يقول :

لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .

---

(١) البخاري ومسلم .

وقال : لئن رجعنا إلى المدينـــة ليخرجّن الأعزُّ منها الأذلّ .

فذكرت ذلك لعمي ، فذكر عمي لرسول الله ﷺ .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أبيّ وأصحابه .

فحلفوا ماقالوا ، فصدقهم رسول الله ﷺ وكذّبني .

فأصابني همّ لم يصبني مثله ، فجلست في بيتي .

فأنزل الله عز وجل : إذا جاءك المنافقون ...

إلى قوله تعالى : هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله ...

إلى قوله تعالى : ليخرجن الأعز منها الأذل .

فأرسل إليّ رسول الله ﷺ ، ثم قال :

إن الله قد صدّقك .(١)

– وعن زيد بن أرقم أيضاً أنه قال :

(١) الترمذي .

غزونا مع رسول الله ﷺ ، وكان معنا ناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء - أي نستبق إليه ، وكان الأعراب يسبقوننا إليه ، فيسبق الاعرابي أصحابه ، فيملأ الحوض ، ويجعل حوله حجاره ، ويجعل النِطْع عليه - وهو بساط من جلد - حتى يجيء أصحابه .

قال : فأتى رجل من الأنصار أعرابياً ، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً فغاض الماء .

فرفع الأعرابي خشبة ، فضرب بها رأس الأنصاري ، فشجّه .

فأتى عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، فأخبره - وكان من أصحابه - فغضب عبد الله بن أبيّ ثم قال :

لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله .

وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام .

ثم قال لأصحابه : لئن رجعتم إلى المدينة ليخرجن

الأعز منها الأذل .

قال زيد وأنا رِدْف عمي - أي راكب معه على ناقته ، فسمعت عبد الله بن أبيّ ، فأخبرت عمي .

فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ .

فأرسل إليه - أي إلى ابن أبي - رسول الله ﷺ فحلف وجحد .

قال : فصدّقه رسول الله ﷺ وكذبني .

فجاء عمي إليّ ، فقال : ماأردت أن يمقتك رسول الله ﷺ والمنافقون ، ويكذبونك !

فوقع علي من جرأتهم - أي من الكرب - مالم يقع على أحد .

قال : فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ والمنافقون في سفر ، قد خفقتُ برأسي من الهم ، ، إذ أتاني رسول الله ﷺ ، فعرك أذني - أي مداعباً - وضحك في وجهي .

فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا .

ثم إن أبا بكر لحقني فقال : ماقال لك رسول الله ﷺ

قلت : ماقال شيئاً ، إلا أنه عرك أذني ، وضحك في وجهي .

فقال : أبشر .

ثم لحقني عمر ، فقلت له مثل قولي لأبي بكر .

فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين (١)

وفي الحديث الشريف : آية المنافق ثلاث :

إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمُن خان .(٢)

أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فية خَصلة منهن ، كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

وفي رواية : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم :

---

(١) الترمذي . (٢) البخاري ومسلم .

إذا ائتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم َفجَر .(١)

حذَّر النبي ﷺ المؤمنين بذلك ، أن يعتادوا هذه الخصال ، شفقةً عليهم ، أن تفضي بهم إلى النفاق .

ـ ثم قال تعالى في سورة المنافقين :

اتخذوا أيمانهم ُجنَّة ـ أي سُترةً ووقاية ـ فصدوا عن سبيل الله ، أنهم ساء ما كانوا يعملون .

وذلك أن ابن أبي حلف ماقال ، وقد قال .

وقال تعالى عنهم في سورة براءة :

يحلفون بالله ماقالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر .(٢)

ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وماهم منكم .(٣)

ـ ثم قال تعالى : ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون .

---

(١) البخاري ومسلم . (٢) ٧٤ ـ توبة . (٣) ٥٦ ـ التوبة .

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وأن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خُشُب مسنَّدة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله ـ أي لعنهم ـ أنّى يؤفكون ـ أي يُصرّفون عن الرشد ـ

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان عبد الله بن أبيّ وسيماً جسيماً ، صحيحاً صبيحاً ، ذَلِق اللسان ، فاذا قال ، سمع النبي ﷺ مقالته .

وكذلك كان فيهم رجال ، لهم أجسام ومنظر وفصاحة .

وشبّههم بالخشب المسندة إلى الحائط ، لايسمعون ولا يعقلون ، أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام .

يحسبون كل صحية عليهم : وَصفَهم بالجبن والخوَر إذا نادى مناد في العسكر ، أن انفلتت دابة ، أو أُنشِدت ضالة ، ظنوا أنهم هم المرادون ، لما في قلوبهم من الرعب .

ـ ثم قال تعالى : وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم ـ أي حركوها استهزاء

وإباء ـ ورأيتهم يَصدّون وهم مستكبرون .

ذكر المفسرون : أنه اختلف أجير لعمر رضي الله عنه ، مع حليف لعبد الله بن أبيّ : فلطم أجير عمر الآخر ، فبلغ ذلك عبد الله بن أبيّ ، فقال :

أو قد فعلوها ؟ والله مامثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : « سمّن كلبك يأكلك » أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز ـ يعني نفسه ـ منها الأذل ـ يعني محمداً ﷺ .

ثم قال لقومه : كُفّوا طعامكم عن هذا الرجل ، ولا تنفقوا على من عنده ، حتى ينفضّوا ويتركوه .

فقال زيد بن أرقم ، وهو من رهط عبد الله :

أنت والله الذليل المُنْتَقَص في قومك ، ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ، ومودة من المسلمين ، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبدا .

فقال عبد الله : اسكت ، إنما كنت ألعب .(١)

---

(١) البخاري ومسلم .

وقال : ابن أبيّ لما لوى رأسه استهزاء :

أمرتموني أن أومن ، فقد آمنت ، وأن أعطي زكاة مالي ، فقد أعطيت ، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد .

ـ ثم قال تعالى : سواء عليهم استغفرت لهم ، أم لم تستغفر لهم ، إن الله لايهدي القوم الفاسقين .

هم الذين يقولون : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتي ينفضّوا ، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقون لايفقهون .

يقولون لئن رجعنا إلى المدينـة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله والمؤمنين ، ولكن المنافقون لايعلمون (١)

ولما سمع بذلك ولده المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ المنافق ، وقف لأبيه على باب المدينة ، وقال :

والذي لاإله إلاهو ، لاتدخل المدينة حتى تقول :

---

(١) ١ـ٨ المنافقون .

إن رسول الله ﷺ هو الأعز ، وأنا الأذل .

فقالها ، فخلّى سبيله فدخل المدينة .

من فضائح المنافقين

وفضح الله تعالى المنافقين في سورة « التوبة » ومن أسمائها سورة « براءة » حتى كان من أسمائها « الفاضحة » :

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه : سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن سورة « براءة » فقال :

تلك الفاضحة ، مازال ينزل : منهم ، ومنهم ... حتى خيفنا أن لاتدع أحدا .

فمن فضائح المنافقين :

تخلفهم عن الجهاد .

ولما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك ، أظهر الله تعالى نفاق المنافقين ، فقال تعالى فيهم :

لو كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً ـ أي سهلاً ـ

لاتبعوك ، ولكن بعُدتْ عليهم الشُّقة - أي السفر البعيد - وسيحلفون بالله لواستطعنا لخرجنا معكم ، يُهلكون أنفسهم - أي بالكذب والنفاق - والله يعلم إنهم لكاذبون(١)

- وقال تعالى : ومنهم من يقول : ائذن لي ولاتفتنّي ، ألا في الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين .(٢)

قال بعض المنافقين لرسول الله ﷺ معتذراً عن الخروج معه إلى تبوك :

قد عرف قومي أني مغرم بالنساء ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر - يعني الروم - أن لاأصبر عنهن فلا تفتنّي ، وائذن لي في القعود ، وأعينك بمالي .

فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : أذنت لك .

ولم تكن به علة إلا النفاق .

- وقال تعالى : المنافقون والمنافقات بعضهم أولياء

---

(١) ٤٢ - التوبة . (٢) ٤٩ - التوبة .

بعض ، يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعـــروف ، ويقبضون أيديهم ...

ـ أي يتركون الجهاد ، ومايجب عليهم من حق .

نسوا الله فنسيهم ـ أي جعلهم بمنزلة المنسيّ من ثوابه ـ إن المنافقين هم الفاسقون .(١)

اللمزُ بالصدقات

قال الله تعالى : ومنهم من يَلمِزُك بالصدقات ...

أي يطعن عليك بسببها ويعيبك .

وصف الله تعالى قوماً من المنافقين ، بأنهم عابوا النبي ﷺ في تفريق الصدقات ، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم .

وفي الحديث الشريف : بينا رسول الله ﷺ يَقسِم مالاً ، إذ جاءه حُرْقوص بن زهير ، أصـــلُ الخوارج ، ويقال له : ذو الخُوَيْصِرة التميمي ، فقال :

---

(١) ٦٧ ـ التوبة .

إعدِلْ يارسول الله !

فقال : ويلك ! ومَن يعدل إذا لم أعدل ؟

فنزلت هذه الآية .(١)

وعندها قال عمر رضي الله عنه :

دعني يارسول الله فأقتلَ هذا المنافق .

قال : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ، إن هذا وأصحابه ، يقرءون القرآن ، لايجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية .

ـ وقال تعالى : الذين يلمزون المطوعّين من المؤمنين في الصدقات ، الذين لايجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم . سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم .(٢)

كان المنافقون يعيبون كل مَن تطوّع بشيء من ماله في سبيل الله ، قلّ أوكثُر :

تصدّق عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بنصف ماله .

---

(١) مسلم .　　(٢) ٧٩ التوبة .

كان ماله ثمانية آلاف ، فتصدق منها بأربعة آلاف .

فقال المنافقون : ماأعظم رياءه !

وجاء رجل من الأنصار بنصف صُبْرَة (١) من تمر

فقالوا ماأغنى اللهَ عن هذا !

وجاء بعض فقراء المسلمين بنصف صاع .

فقالوا إن الله لغنيٌ عن صدقة هذا .

فأنزل الله تعالى هذه الآية في ذمهم .

أذاهم للنبي ﷺ

ـ قال الله تعالى في المنافقين :

ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون : هو أُذُنٌ ـ أي يستمع ويقبل ـ .

قل : هو أذنُ خيرٍ لكم ـ أي يسمع الخير ولايسمع الشر ـ

---

(١) الصبرة : ماجمع من الطعام بعضه فوق بعض ، بلا كيل ولاوزن .

يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين - أى يصدّقهم -
ورحمهٌ للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول
الله لهم عذاب أليم .

يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن
يرضوه إن كانوا مؤمنين .(١)

الحذر من الفضيحة

- يحذر المنافقون أن تنزل عليهم آية تنبئهم بما
في قلوبهم .

- أي من المخازي والمساوي والمثالب -

قل استهزئوا ، إن الله مخرجٌ ماتحذرون .

ولئن سألتهم ليقولُنَّ : إنما كنا نخوض ونلعب .

قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون (٢)؟

قال المفسرون : بينما النبي ﷺ يسير في غزوة

---

(١) ٦١و٦٢ - التوبة . (٢) ٦٤و٦٥ - التوبة .

تبوك ، وركبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه ، فقالوا :

انظروا ، هذا يفتح قصور الشام ، ويأخذ حصون بني الأصفر – يعني الروم – !

فأطلعه الله سبحانه على مافي قلوبهم ، ومايتحدثون به .

فقال احبِسوا عليَّ الركب .

ثم أتاهم فقال : قلتم كذا وكذا .

فحلفوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب – يريدون أنهم غير جادين –

وأصل الخوض : الدخول في الماء . ثم استعمل في كل دخول فيه تلويث وأذى .

الكذب

– وقال تعالى فيهم : يحلفون بالله ماقالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهمّوا بما لم ينالوا (١)

(١) ٧٤ – التوبة .

نزلت هذا الآية في الجُلاس بن سويد ووديعة بن ثابت ، وقعوا في النبي ﷺ ، وقالوا :

والله لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا ، لنحن شرٌ من الحمير .

فقال له عامر بن قيس رضي الله عنه : أجل والله إن محمداً لصادق مصدَّق ، وإنك لشرٌ من حمار .

وأخبر عامر بذلك النبي ﷺ ، وجاء الجُلاس ، فحلف عند منبر النبي ﷺ : إن عامراً لكاذب .

وحلف عامر : لقد قال .

وقال : اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئاً .

فنزلت هذه الآية .

ـ وهمّوا بما لم ينالوا : ذلك أن الجُلاس لما قال له صاحبه :

إني سأخبر رسول الله ﷺ بقولك .

همّ بقتله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك .

نقض العهد واخلاف الوعد

ـ وقال تعالى فيهم : ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين .

فلما آتاهم من فضله ، بخلوا به ، وتولّوا وهم معرضون .

فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه ، وبما كانوا يكذبون .

ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب ؟ .(١)

قال المفسرون : جاء ثعلبة بن حاطب الانصاري ، إلى رسول الله ﷺ ، فقال :

يارسول الله ! ادعُ الله أن يرزقني مالاً .

فقال رسول الله ﷺ : ويحك ياثعلبة ! قليل تؤدي شكره ، خير من كثير لاتطيقه .

---

(١) ٧٥و٧٨ ـ التوبة .

ثم أتاه بعد ذلك فقال :

يارسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً .

فقال رسول الله ﷺ : أما لك في رسول الله أسوة حسنة ؟

والذي نفسي بيده ، لوأردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت .

ثم أتاه بعد ذلك فقال :

يارسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، والذي بعثك بالحق ، لئن رزقني الله مالاً ، لأعطينّ كل ذي حق حقه !

فقال رسول الله ﷺ : اللهم ارزق ثعلبة مالاً .

فاتخذ ثعلبة غنما ، فنمتْ كما ينمي الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، ونزل وادياً من أوديتها ، وهي تنمي كما تنمي الدود .

فكان يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ،

ويصلي في غنمه سائر الصلوات .

ثم كثرت ونمت ، حتى تباعـد عن المدينة أيضاً ، حتى صار لايشهد جمعة ، ولاجماعة .

فـكان إذا كان يوم جمعـــة ، خرج فتلقى الناس يسألهم عن الأخبار .

فذكـره رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقـال : مافعل ثعلبة ؟

فقالوا : يارسول الله ، اتخذ ثعلبة غنما مايسعها واد !

فقال رسول الله ﷺ : ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة !

فأنزل الله آية الصـــدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سُليم ، ورجلاً من بني جُهينة ، وكتب لهما أسنان الصدقة ، وكيف يأخذان ؟

وقال لهما : مُرّا على ثعلبة بن حاطب ، ورجل من بني سُليم فخذا صدقاتهما .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرأاه

كتاب رسول الله ﷺ .

فقال : ماهذه إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ، ثم عودا إليّ .

فانطلقا ، وسمع بهما السُلَمى ، فنظــــر إلى خيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها .

فلما رأياها ، قالا ماهذه عليك .

قال : خذاها ، فان نفسي بذلك طيبة .

فمرا على الناس ، وأخذا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة ، فقال :

أروني كتابــكما .

فقرأه ثم قال : ماهذه إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية ! اذهبا حتى أرى رأيي .

فأقبلا ، فلما رآهما رســـــول الله ﷺ ، قال قبل أن يتكلما :

ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة !

ثم دعا للسُلَمي بخير ، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة .

فأنزل الله تعالى فيه :

ومنهم من عاهد الله ... الآيات .

وكان عند رسول الله ﷺ حينئذ رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك ، فخرج حتى أتاه ، فقال :

ويحك ياثعلبة ، لقد أنزل الله فيك كذا وكذا .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ ، فسأله أن يقبل منه صدقته .

فقال : إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك .

فجعل يحثو على رأسه التراب .

فقال له رسول الله ﷺ : هـــذا عملك ، لقد أمرتك فلم تطعني .

فلما أبي رسول الله ﷺ صدقته رجع إلى منزله .

وقُبض رسول الله ﷺ ، فأتى أبو بكر ، فقال : اقبل صدقتي .

فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ، فأنا لا أقبلها .

فقُبِض أبو بكر ولم يقبلها منه ، فلما وليّ عمر ، أتاه فقال : اقبل صدقتي .

فقال : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ، فأنا لا أقبلها منك .

ثم ولي عثمان ، فأتاه فلم يقبلها منه ، وهلك ـ أي مات ـ في خلافة عثمان .(١)

قال بعض العلماء : إنما لم يقبل رسول الله ﷺ صدقة ثعلبة ، لأن الله تعالى منعه من قبولها منه ، مجازاة له على إخلافه ماعاهد عليه ، وإهانة له على قوله :

إنما هي جزية ، أو أخت الجزية .

فلما صدر هذا القول منه ، رُدَّت صدقته عليه إهانة له ، وليعتبر غيره به ، فلا يمتنعَ من بذل الصدقة عن طيب نفس باخراجها ، ويرى أنها واجبة عليه ، وأنه

---

(١) البغوي والطبري .

يثاب على إخراجها ، ويعاقب على منعها .

وقال تعالى : إن شر الدوابّ عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون .

الذين عاهدتَ منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ، وهم لايتقون .(١)

وكل مادبّ على وجه الأرض فهو دابــة ، فشمل الانسان والحيوان .

والمعنيُّ بهم هنا يهود قريظة والنضير ، نقضوا العهد الذي عقدوه مع النبي ﷺ ، فأعانوا مشركي مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : « نسينا » .

فعاهدهم النبي ﷺ ثانية ، فنقضوا العهد يوم الخندق .

مسجد الضرار

ـ وقال تعالى في المنافقين أيضاً :

والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين

(١) ٥٥و٥٦ ـ الانفال .

المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورســـوله من قبل ، وَليحلفُنَّ إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لـكاذبون.

لاتقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبـون أن يتطهروا ، والله يحب المطَّهرين .

أفمن ُأسّس بنيانه على تقـــوى من الله ورضوان خير ، أم من أسّس بنيانه على شفا ُجرُفٍ هارٍ ، فانهار به في نار جهنم ؟

والله لايهدي القوم الظالمين .

لايزال بنيانهم الذي بَنوا ريبـــة في قلوبهم – أي شكاً ونفاقا – إلّا أن تقطَّع قلوبهم – أي تنصدع قلوبهم فيموتوا – والله عليم حكيم.(١)

قال المفسرون : نزلت في أبي عامر بن صيفيّ الراهب ، وكان يلبس المسوح – يعني الجلود – في الجاهية ، فكفر بالنبي ﷺ ، وذلك أنه دخل عليه المدينة ، فقال :

---

(١) ١١٠ – التوبة .

يامحمد : ماهذا الذي جئتَ به ؟

قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم .

قال : فاني عليها .

فقال النبي ﷺ : لستَ عليها ، لأنك أدخلت فيها ماليس منها .

فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً .

فقال النبي ﷺ : أمات الله الكاذب منا كذلك .

وإنما قال أبو عامر هذا يُعَرّض برسول الله ﷺ حيث خرج من مكة .

وقال للنبي ﷺ : لاأجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم .

فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن ، خرج إلى الروم يستنصر بهم .

فخرج إلى الشام ، ومرّ إلى قيصر ، وكتب إلى المنافقين :

إستعدّوا ، فاني آتيكم من عند قيصر بجند ، لنخرج محمداً من المدينة .

فمات بالشام وحيداً .

ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم ، فبنوا مسجد الضرار ، يرصدون مجيئه فيه .

وقال آخرون : إن بني عمرو بن عوف ، اتخذوا مسجد قباء ، وبعثوا للنبي ﷺ أن يأتيهم ، فأتاهم فصلى فيه .

فحسدهم إخوانهم بنو غُنيم بن عوف ، وقالوا :

نبني مسجداً ، ونبعث إلى النبي ﷺ يأتينا ، فيصلي لنا كما صلى في مسجد إخواننا ، ويصلي فيه أبو عامر إذا قدم من الشام .

فأتوا النبي ﷺ ، وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا :

يارسول الله ! قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة ، والليلة المطيرة ، ونحب أن تصلي لنا فيه وتدعوا بالبركة .

فقال النبي ﷺ : إني على سفر وحال شغل ، فلو قدمنا لأتيناكم ، وصلينا لكم فيه .

فلما انصرف النبي ﷺ من تبوك ، أتوه وقد فرغوا منه ، وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد .

فدعا بقميص ليلبسه ويأتيهم ، فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضرار .

فدعا النبي ﷺ أربعة من المسلمين ، فقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه ، وأحرقوه .

فخرجوا مسرعين ، وأخرج أحدهم من منزله شعلة نار ، ونهضوا ، فأحرقوا المسجد وهدموه .(١)

وقد روي أن رسول الله ﷺ لما نزلت الآية في

---

(١) وأبو عامر هذا صاحب القصة هو والد حنظلة غسيل الملائكة رضي الله عنه ، وسمي : غسيل الملائكة ، لأنه استشهد يوم أحد ، وغسلته الملائكة ، وذلك أنه كان قد ألم بأهله قبل خروجه إلى أحد ، ثم هجم عليه من الخروج في النفير ماأنساه الغسل وأعجله عنه ، فلما قتل شهيدا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته . « عن الاستيعاب » .

مسجد الضرار ، كان لايمر في الطريق التي فيها المسجد ، وأمر بموضعه أن يتخذ كناسةَ مزبلة ، تُلقى فيها الجيَف والأقذار والقمامات .

فتنة المنافقين

ـ ثم قال تعالى في المنافقين في أواخر سورة « التوبةُ » :

وإذا ماأُنزلتْ سورة ، فمنهم من يقول :

أيّكم زادته هذه إيمانا ؟

فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون .

وأما الذين في قلوبهم مرض ، فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .

أوَلا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أومرتين .

أي يُختبرون بالقحط والشدة ، أوبالامراض والأوجاع ، وهي روائد الموت ، أو بالغزو والجهاد مع النبي ﷺ ، ويرون ماوعد الله من النصر ـ

ثم لايتوبون ، ولاهم يذّكرون .

وإذا ماأنزلت سورة ، نظر بعضهم إلى بعض .

« هل يراكم من أحد » ؟ ثم انصرفوا ، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون .

هربهم من الاحتكام الى الله والرسول

قال الله تعالى : ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزِل اليك ، وماأُنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أُمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا ؟

وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصُدّون عنك صدودا .(١)

كان بين رجل من المنافقين ، ورجل من اليهود خصومة .

فدعا اليهوديُّ المنافقَ إلى النبي ﷺ ، لأنه علم

(١) ١٤٣ – النساء .

أنه لايقبل الرشوة .

ودعا المنافقُ اليهوديَّ إلى حكامهم ، لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في أحكامهم .

فلما اختلفا اجتمعا على أن يحكِّما كاهناً في جُهَينة - اسم قبيلة - فأنزل الله تعالى الآية في ذلك .

وفي رواية أخرى : كان بين رجل من المنافقين ، وبين يهودي خصومة .

فقال اليهودي : انطلق بنا إلى محمد .

وقال المنافق : بل إلى كعب بن الأشرف - وهو الذي سماه الله : « الطاغوت » أي ذا الطغيان .

فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ .

فلما رأى المنافق ذلك ، أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى لليهودي .

فلما خرجا قال المنافق : لاأرضى انطلق بنا إلى أبي بكر .

فحكم لليهودي ، فلم يرضَ ، وقال : انطلق بنا إلى عمر .

فأقبلا على عمر ، فقال اليهودي : إنا صرنا إلى رسول الله ﷺ ، ثم إلى أبي بكر ، فلم يرضَ .

فقال عمر للمنافق : أكذاك هو ؟

قال : نعم .

قال : رُوَيْدَكما ـ أي انتظرا ـ حتى أخرج اليكما .

فدخل وأخذ السيف ، ثم ضرب به المنافق ، حتى بَرَدَ ـ أي مات ـ .

وقال : هكذا أقضي على من لم يرضَ بقضاء الله ورسوله .

وهرب اليهودي ، ونزلت الآية ، وقال رسول الله ﷺ : أنت الفاروق .

حرص النبي ﷺ على هدايتهم

وكان النبي ﷺ يصلي على المنافقين ، كلما مات

واحد منهم ، تلطفاً بهم ، وتأليفاً لهم ، حتى نهاه الله تعالى عن ذلك فقال :

ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون (١)

ولما توفي عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين ، جاء ابنه عبد الله رضي الله عنه ، إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه إياه .

ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه .

فقام عمر رضي الله عنه ، وأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال :

يارسول الله ، أتصلي عليه ، وقد نهاك الله أن تصلي عليه ؟!

فقال رسول الله ﷺ : إنما خيَّرني الله تعالى ، فقال :

---

(١) ٨٤ ــ التوبة .

استغفر لهـم ، أولا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم ...(١)

وسأزيد على سبعين .

قال : إنه منافق !

فصلى عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل :

ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ...

فترك الصلاة عليهم .(٢)

ـ فان قال قائل : كيف قال عمر :

أتصلي عليه ، وقد نهاك الله أن تصلي عليه ؟

ولم يتقدم ذلك نهي عن الصلاة على المنافقين .

فالجواب : أنه يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره ، ويكون من قبيل الالهام .

أو يحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى :

---

(١) ٨٠ ـ التوبة . (٢) مسلم .

استغفر لهم ، أو لاتستغفر لهـم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم .(١)

أو يحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى :

ما كان للنبي والذين آمنو أن يستغفروا للمشركين(٢)

مَثَل المنافق

قال الله تعالى في المنافقين :

مَثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون .

صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فهم لايرجعون .(٣)

شبّه الله تعالى المنافقين بالمستوقد النار ، لأن بقاء المستوقد في ظلمات لايبصر ، كمثل المنافق في حيرته وتردّده .

---

(١) ٨٠ ـ التوبة . (٢) ١١٣ ـ التوبة .
(٣) ١٧و١٨ ـ البقرة .

فالآية الكريمة ضربٌ مثل المنافقين ، وذلك أن مايظهرونه من الايمان ، الذي تثبت لهم به أحكام المسلمين في النكاح والارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، بمثابة من أوقد ناراً في ليلة مظلمة ، فاستضاء بها ، ورأى ماينبغي أن يتّقيه ، وأمن منه . فاذا طُفئت عنه ، أوذهبت ، وصل اليه الاذى ، وبقي متحيرا

فكذلك المنافقون : لما آمنوا اغتروا بكلمة الاسلام ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم ، ويذهب نورهم .

ولهذا قال الله تعالى فيهم :

يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : « انظرونا نقتبس من نوركم » .

قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا .

فضُرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمه ، وظاهره من قبله العذاب .

ينادونهم : ألم نكن معكم ؟

قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغَرور - يعني الشيطان - .

ثم قال تعالى في تشبيه المنافقين :

أو كصيّب - أي مطر - من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذرَ الموت ، والله محيط بالكافرين - أي عالم بهم -

وشبّه الله تعالى في هذه الآية أحوال المنافقين ، بما في المطر من الظلمات والرعد والبرق والصواعق .

فالظلمات ، مَثَل لما يعتقدونه من الكفر .

والرعد والبرق والصواعق ، مَثَل لما يُخوّفون به .

يكاد البرق يخطَف أبصارهم ...

أي تكاد حجج القرآن وبراهينه الساطعة تبهرهم .

كلما أضاء لهم مشوا فيه ...

أي كلما سمعوا القرآن ، وظهرت لهم الحجج أنِسُوا

ومشوا معه .

وإذا أظلم عليهم قاموا ...

أي إذا نزل من القرآن ما يعمون فيه ، ويضلّون به ، أو يكلّفونه ، قامو - أي ثبتوا على نفاقهم -

ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ...

أي لو شاء لأطلع المؤمنين عليهم ، فذهب منهم عز الاسلام ، بالاستيلاء عليهم ، وقتلهم واخراجهم من بينهم .

- وفي الحديث الشريف : مَثَل المؤمن الذي يقرأ القرآن ، كمثل الأُتْرُجَّة - البرتقالة - : ريحها طيب ، وطعمها طيّب .

ومثل المؤمن الذي لايقرأ القرآن ، كمثل التمرة : لاريح لها ، وطعمها طيّب .

ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن ، كمثل الريحانة : ريحها طيّب ، ولاطعم لها .

ومثل المنافق الذي لايقرأ القرآن ، كمثل الحنظلة :

ليس لها ريح ، وطعمها مرّ .(١)

- وفي حديث آخر : مَثَل المنافق مَثَل الشاة العائرة - بين الغنمين - أي مثل الشاة المترددة بين قطعتين ، لاتدري أيّهما تتبع - تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه أخرى .(٢)

وهذا تفسير لقوله تعالى : مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

- وقال تعالى في المنافقين أيضاً : ألم تَرَ إلى الذين نافقوا ، يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب - يعني يهود قريظة والنضير - :

لئن أُخرجتم لنخرجَّن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً ابدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون .

لئن أُخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم لَيُولُنَّ الأدبار ، ثم لاينصرون .

---

(١) البخاري ومسلم . (٢) مسلم .

لأنتم أشد رهبـــة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم لا يفقهون .

لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصنة ، أومن وراء جُدُر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .(١)

بأسهم بينهم شديد : أي بالكلام والوعيد : لنفعلنّ كذا ، ولنفعلنّ كذا ...

فاذا لم يلقوا عـــدواً ، نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس ، وإذا لقُوا العدو انهزموا .

وجعل الله تعالى مَثَل المنافقين في ذلك ، كمثل الشيطان فقال :

كمثل الشيطان إذ قال للانسان : « اكفر »

فلما كفر قال : إني بريء منك ...(٢)

ضرب الله هذا المثل للمنافقين واليهود في تخاذلهم

---

(١) ١١و١٤ الحشر . (٢) ١٦ الحشر .

وعدم الوفاء في نُصرتهم بعدما وعدوهم بها :

وذلك ان الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُجلي بني النضير من المدينة ، فدسّ إليهم المنافقون ان لاتخرجوا من دياركم ، فان قاتلوكم كنا معكم ، وإن أخرجوكم كنا معكم .

فحاربوا النبي ﷺ ، فخذلهم المنافقون ، وتبرّءوا منهم كما يتبرأ الشيطان ممن أغراه بالكفر وأغواه .

من أقوال المنافقين الماكرة

ـ قال الله تعالى فيهم يوم بدر : إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : « غرّ هؤلاء دينهم » ـ يعني المسلمين ـ ومن يتوكل على الله ، فان الله عزيز حكيم .(١)

ـ وقال تعالى فيهم يوم الاحزاب : وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا .(٢)

---

(١) ٤٩ ـ الانفال . (٢) ١٢ ـ الاحزاب .

وقال بعضهم لبعض : كيف يَعِدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ، ولايستطيع أحدنا أن يتبرَّز ؟!

- وإذ قالت طائفة منهم : ياأهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا .

- ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون :

« إن بيوتنا عورة - أي ليست محصَّنة - وماهي بعورة » .

إن يريدون إلا فرارا .(١)

- وقال تعالى في تهديدهم : لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة ، لنُغْرينّك بهم - أي لنسلّطنّك عليهم فتستأصلهم بالقتل - ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا .

ملعونين أينما ثُقِفوا - أي وجدوا - أُخذوا وقُتّلوا تقتيلا .(٢)

---

(١) ١٣ - الاحزاب .   (٢) ٦٠و٦١ - الاحزاب .

ـ وقال تعالى : ومن الناس من يقول : « آمنا بالله » فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولُنّ : « إنا كنا معكم » أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟

ولَيعلمنّ الله الذين آمنوا ، ولَيعلمنّ المنافقين (١)

نزلت في المنافقين ، كانوا يدّعون الايمان ، فاذا أوذوا في الله جعلوا أذى الناس كعذاب الله في الآخرة ، وجزعوا من الأذى كما يُجْزَع من عذاب الله ، ولا يصبرون على الأذية في الله .

الردة بعد الإيمان كفر

قال الله تعالى : ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم ، فتنقلبوا خاسرين .(٢)

ياأيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه ، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين

(١) ١٠و١١ ـ العنكبوت . (٢) ١٤٩ ـ آل عمران .

أعزّة على الكافرين .(١)

من كفر بالله من بعد ايمانه ، إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .(٢)

وقال تعالى في الكافرين مخاطباً المؤمنين ، ومحذّراً لهم :

ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا .

ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون .(٣)

ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله - أي بطل ثوابه - وهو في الآخرة من الخاسرين .(٤)

---

(١) ٥٤ - المائدة .
(٢) ١٠٦ - النمل .
(٣) ٢١٧ - البقرة .
(٤) ٥ - المائدة .

تحذير النبي ﷺ أمته من الرجوع إلى الكفر

قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع :
لاترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض(١)

معناه : لاتفعلوا فعل الكفار .

أو : لاتكفروا ودوموا مسلمين .

أو : لاتكفّروا بعضكم بعضا فتستحلوا قتال بعضكم بعضا .

وفي الحديث الشريف : بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا .(٢)

المرتد يُقتَل

والردة عن الاسلام كفر ، ومحبطة للعمل الصالح ، وموجبة لقتل المرتد إن لم يتب ويَعُد إلى الاسلام .

(١و٢) مسلم .

ولهـذا قاتل أبو بكر رضي الله عنـــه المرتدين ، فقتل منهم من قتل ، ورجع منهم إلى الاسلام من رجع .

وفي الحديث الشريف : لايحـــل دم أمرىء مسلم إلا باحدى ثلاث :

الثيّب الزاني : وهـو من تزوج ووطىء ، ثم زنى بعد ذلك .

والنفْس بالنفس : وهو القتل بسبب القتل العمد .

والتارك لدينه المفارق للجماعة (١) :

وهو المرتد عن الاسلام ، والعياذ بالله تعالى ، فان لم يعد إلى الاسلام يقتل .

المكرَه على الكفر ليس بكافر

قال الله تعـالى : إلا مَن أُكرِه وقلبه مطمئن بالايمان .(٢)

---

(١) البخاري ومسلم .   (٢) ١٠٦ ـ النحل .

وفي الحديث الشريف :

إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما أستكرهوا عليه .(١)

أي تجاوز عنهم إثم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

وأما حكم الخطأ والنسيان والمكره عليه فغير مرفوع :

فلو اتلف شيئاً خطأ ، أوضاعت منه الوديعة نسياناً ضمن .

ويستثنى من الاكراه الاكراه على الزنى والقتل فلايباحان بالاكراه .

ويستثنى من النسيان ماتعاطى الانسان سببه ، فانه يأثم بفعله لتقصيره .

وصف غير الله بالألوهية كفر

ـ أخبر الله تعالى عباده على ألسنة رسله أنه لا إله

(١) ابن ماجه والبيهقي .

الا هو ، وأنه لاتنبغي العبـادة إلاله وحده لاشريك له ، فانه مالك كل شيء وخالقه وربه :

وقال الله : لاتتخـــذوا إلهين أثنين ، إنما هو إله واحد ، فاياي فارهبون .(١)

وقال تعالى منكراً على المشركين :

أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون .(٢)

ـ ونزه الله تعـالى نفســـه عن الولد والشريك فقال عز وجل :

ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعضهم .(٣)

ـ وقال عز وجل :

أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون ؟

ـ أي أهم يحيون الموتى ـ ؟

---

(١) ٥١ ـ النحل . (٢) ٦٣ ـ النحل .
(٣) ٩١ ـ المؤمنون .

لو كان فيهما آلهـــة إلا الله لفسدتا ...[١] يعني السموات والأرض - .

- وقال تعالى : قل : لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا .

سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا .[٢]

- ولمــا سار موسى عليه السلام ببني اسرائيل بعد هلاك فرعون ، وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم .

فقالوا : ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

قال : إنكم قوم تجهلون .

إن هـؤلاء متبّر ماهم فيـــه ، وباطل ما كانوا يعملون .[٣]

- وقال تعالى فيهم : واتخـذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنـه لايكلمهم ولايهديهم سبيلاً ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين .[٤]

---

(١) ٢١و٢٢ ـ الأنبياء (٢) ٤٢و٤٣ ـ الاسراء .
(٣) ١٣٨و١٣٩ ـ الأعراف . (٤) ١٤٨ ـ الأعراف .

وقال الله تعالى : لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم .

قل : فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟

ولله ملك السموات والأرض ومابينهما ، يخلق مايشاء ، والله على كل شيء قدير .(١)

نفى الله تعالى وصف الالوهية عن عيسى وأمه عليهما الصلاة والسلام ، وصرّح أنهما عبدان من عباد الله ، وله أن يتصرف بهما ، وبجميع مخلوقاته بما يشاء ، والمتصّرفُ إله قادر ، والمتصرَّف به مخلوق ضعيف .

وقد خلق الله تعالى عيسى بن مريم من غير أب ، وبشرّها به من قبل أن تحمل به ، وكان منها الدهش والعجب ، فلفتها إلى قدرته العظيمة الباهرة :

إذ قالت الملائكة : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيهاً في الدنيا والآخرة ،

(١) ٧٦ ـ المائدة .

ومن المقربين .

ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين .

قالت : ربِّ أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟

ـ قال : كذلك الله يخلق مايشاء ، إذا قضى أمراً فانما يقول له : « كن » فيكون .(١)

ـ وقال تعالى : لقد كفر الذين قالوا : « إن الله ثالث ثلاثة » .

ومامن إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ، ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم .

أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ؟

ما المسيح بن مريم إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام . أنظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم أنظر أنى يؤفكون .(٢)

وصف الله تعالى عيسى عليه السلام أنه مولود

(١) ٤٥و٤٧ ـ آل عمران . (٢) ٧٧و٧٩ ـ المائدة .

مربوب ، وممن ولدته النساء ، وكان يأكل الطعام ، مخلوق محدث كسائر المخلوقين ، ولم يدفع هذا الوصف عنه أحد منهم .

فمتى يصلح المربوب لأن يكون ربا ؟ !

حكي أن رجلاً من السلف الصالح ، مر بصومعة راهب ، فجلس إليه يحدثه ، وكان من حديثه معه أنه قال له :

كيف تعبدون عيسى عليه السلام ، وهو عبد مخلوق ؟!

قال الراهب : إنه فعل مالايستطيعه البشر : إنه أمسك عن الطعام والشراب أربعين يوماً .

قال الرجل الصالح : وإذا أنا أمسكت عن الطعام والشراب مثله ، أفتعبدني ؟

قال : إنك لاتستطيع .

قال : أفعل .

فلبث عنده أربعين يوماً لايأكل ولايشرب ، ولايغيب

عنه في حال ، ولما أتم أربعين يوماً ، قال : أزيدك عشرة أيام .

فزاده عشرة أيام ، حتى أتم خمسين يوماً ، فأسلم الراهب .

وهذا الذي فعله الرجل الصالح ، كرامة أكرمه الله تعالى بها ، وقوّاه عليها ، والكرامة أمر خارق للعادة يحصل على يد مَنْ ظاهره الصلاح غير مقترن بدعوى النبوة .

وهذا الموطن خير المواطن التي تظهر فيها كرامات الأولياء ، لأنه قصد من ورائها إسلام كافر ، فنِعمَ ما فعل !

ـ وقال تعالى : ياأهل الكتاب لاتَغْلوا في دينكم ، ولاتقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولاتقولوا : « ثلاثةٌ » انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات والأرض ، وكفى بالله وكيلا .(١)

(١) النساء ـ ١٧١ .

واعتقاد أن عيسى عليه السلام لاأب له واجب .

وقد كرّر الله تعالى اسمه منسوباً إلى أمه ، في كثير من آيات القرآن الكريم ؛ لتستشعر القلوب مايجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه ، ولينزّه أمه الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله .

فعيسى عليه السلام رسول الله وكلمته : أي كوّنه بكلمة « كن » فكان بشراً من غير أب .

وقال تعالى فيه : « وروحٌ منه » وهذا الذي أوقع النصارى في الضلال .

فقالوا : « عيسى جزء منه » فجهلوا وضلوا .

والحق أن هذه الاضافة للتفضيل ، وإن كانت جميع الأرواح من خلقه .

وهذا كقوله تعالى ، وطهر بيتي للطائفين ...(١)

فالله تعالى منزّه عن الولد ، كما هو منزّه

(١) ٢٦ ـ الحج .

عن البيت .

ـ وقد نفى الله تعالى عن عيسى عليه السلام وصف الألوهيه ، فقال :

ما المسيح بن مريم إلا رسول قـــد خلت من قبله الرسل ...[١]

وقال ، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل .[٢]



---

(١) ٧٥ ـ المائدة .

(٢) ٥٩ ـ الزخرف .

الكذب على الله كفر

ـ قال الله تعالى : وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه .

قل : فلمَ يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذّب من يشاء .(١)

خوّف رسول الله ﷺ قوماً من اليهود عقاب الله عز وجل .

فقالوا كما يقول النصارى : لانخاف ، فانا أبناء الله وأحباؤه .

فكانوا يرون فضلاً لأنفسهم على سائر الناس .

فأنزل الله عز وجل هذه الآية فيهم ، وردّ عليهم قولهم ، فقال :

قل : فلم يعذّبكم بذنوبكم ؟

---

(١) ١٨ ـ المائدة .

ـ أي أوعد العصاة منكم بالعذاب ـ

وهم أمام هذا الرد لايخلون من أحد وجهين :
إما أن يعترفوا بما أوعدهم الله به من العذاب ، إن هم عَصَوْه .

فيقال لهم : فلستم إذن أبناءه ولا أحباءه ، فان الحبيب لايعذب حبيبه ، وأنتم تقرّون بعذابه ، فذلك دليل على كذبكم .

وإما أن يقولوا : « لايعذّبنا » فيكذّبوا مافي كتبهم ، وماجاءت به رسلهم ، ويبيحوا المعاصي ، وهم معترفون بعذاب العصاة منهم ، ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم .

ـ وقال تعالى : ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟
أولئك يُعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد :
هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين .(١)

كذبوا على ربهم ، فأضافوا كلامه إلى غيره ،

(١) ١٨ ـ هود .

وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا الأصنام : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

وكل هذا كذب على الله تعالى .

ـ وقال تعالى : ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسوّدة ، أليس في جهنم مثوى المتكبرين .(١)

ـ وقال تعالى : يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا : « آمنا » بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرّفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تُؤتوه فاحذروا (٢)

نزلت هذه الآية في يهوديين زنيا ، فجُلدا .

فقال النبي ﷺ : ائتوني بأعلم رجلين منكم .

فجاءوه ، فنشدهما الله تعالى : كيف تجدان أمر هذين في التوراة ؟

(١) ٦٠ ـ الزمر . (٢) ٤١ ـ المائدة .

قالا : نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذَكَره في فرجها كالمِرْود في المُكْحُلة ، رُجما .

قال : فما عندكما أن ترجموهما ؟

قالا : ذهب سلطاننا فكرهنا القتل .

فدعا النبي ﷺ بالشهود ، فجاءوا فشهدوا ...

فأمر النبي ﷺ برجمها .(١)

ـ ومُرَّ على النبي ﷺ بيهودي مُحَمَّماً ـ أي مُطلي وجهه بالفحم ـ مجلوداً ، فدعاهم فقال :

هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم ؟

قالوا : نعم .

فدعا رجلاً من علمائهم ، فقال : أنشُدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم ؟

قال : لا ـ ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ـ

---

(١) البخاري ومسلم .

نجده الرجم ، ولكنه كثر في اشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد .

قلنا : تعالوا نجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم .

فقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه .

فأمر به فرجم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .(١)

ـ وقال تعالى فاضحاً تلاعب المشركين في دين الله ، وكذبهم على الله :

وقالوا : هذه أنعام وحرثٌ حِجر ـ أي محجورة يعني ممنوعة ـ لايَطعَمها ـ أي لايأكلها ـ إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعامٌ حرّمت ظهورها ، وأنعامٌ لايذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون(٢)

حرّموا أنعاماً وحرْثا ، وجعلوها لأصنامهم ، وقالوا :

---

(١) مسلم . (٢) ١٣٨ ـ الانعام .

« لا يَطعمَها إلا من نشاء » وهم خدّام الأصنام .

« وأنعامٌ حرّمت ظهورها » وهي التي يسيّبونها ـ أي يتركونها سائبة ـ لآلهتهم .

والمراد بها : البَحِيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامي :

فالبَحيرة :

الناقة التي وَلَدتْ خمسة أبطن ، وكان آخرها ذكراً ، فيَبحَرون أذنها ـ أي يشقونها ـ ويُعفون ظهرها من الركوب ، والحمل والذبح ، ولا تُطرد عن ماء تَرِده ، ولا تمنع من مرعى ، وإذا لقيها المنقطع في طريق لم يركبها .

والسائبة :

هي الناقة التي تابعت بين عشر أناث ، ليس بينهن ذكر ، فتُسيَّب ـ أي تترك ـ فلا يُركب ظهرها ، ولا يُجَزّ وبرها ، ولا يَشرب لبنها إلا ضيف .

والوصيلة :

هى الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن ، فلا يشرب لبنها .

والحامي :

الفحل من الابل ، يضرب الضراب المعدود ، فاذا بلغ ذلك قالوا : هذا حامٍ ـ أي حمى ظهره ـ فيُترك ، فلا يُنتفع منه بشيء ، ولا يُمنع من ماء ولا مرعى .

فكذّبهم الله تعالى فقال : ماجعل الله من بَحيرة ولاسائبة ولاوصيلة ولاحام ، ولكنّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون .(١)

ثم قال تعالى : وقالوا : مافي بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ، ومحرَّمٌ على أزواجنا ، وإن يكن مَيْتةً فهم فيه شركاء .

سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم .(٢)

(١) ١٠٣ ـ المائدة . (٢) ١٣٩ ـ الأنعام .

وهذا نوع آخر من جهلهم وكذبهم على الله عز وجل

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو اللبن جعلوه حلالاً للذكور ، وحراماً على الاناث .

وإن يكن مافي بطون الأنعام من الأجنّة مَيْتة ، فالرجال والنساء فيه شركاء .

« سيجزيهم وصْفَهم » أي كذبهم وافتراءهم ، فيعذبهم على ذلك .

الكذب في الرؤى

ومن الكذب على الله تعالى ، الكذب في الرُّؤَى المنامية ، وهو من الكبائر .

لأن الرؤى المنامية وحي من الله تعالى .

ففي الحديث الشريف : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .(١)

---

(١) البخاري ومسلم .

الرؤيا الصالحة من الله .(١)

فمن ادّعاها كاذباً ، كان كاذباً على الله عز وجل .

وفي الحديث الشريف : مَن تحلّم بحُلْم لم يره ، كُلّف أن يعقد بين شعيرتين ، ولن يفعل ...(٢) ـ أي لن يستطيع ذلك ـ

وفي حديث آخر : إن من أفرى الفِرَى ـ أي من أكذب الكذب ـ أن يُري عينيه مالم تَرَه .(٣)

فمن أكذب الكذب أن يقول أحد : « رأيت في المنام كذا وكذا » وهو لم يَرَ شيئاً . لأنه كذب على الله تعالى.

ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً .؟(٤)

التلاعب بأحكام الحلال والحرام كفر

قال الله تعالى : إنما النسيء زيادة في الكفر ، يُضَلّ به الذين كفروا ، يُحِلّونه عاماً ويحرّمونه عاما ،

(١) البخاري ومسلم . (٢) البخاري وأبو داوود والترمذي .
(٣) البخاري . (٤) ٢١ ، ٩٣ ـ الأنعام ، و١٨ ـ هود. و٦٨ ـ العنكبوت ، و٧ ـ الصف .

ليواطئوا عدة ماحرّم الله ، فيُحلوا ماحرّم الله ، زُيِّن لهم سوء أعمالهم ، والله لايهدي القوم الكافرين .(١)

كان العرب في الجاهلية يحرّمون القتال في المحرّم ، فاذا احتاجوا إلى ذلك ، حرّموا صفراً بدله ، وقاتلوا في المحرّم .

وهو المراد بالنسيء ، إذ معناه التأخير .

وسبب ذلك : أن العرب كانوا أصحاب حروب وغارات ، فكان يشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يُغيرون فيها .

وقالوا : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نُصيب فيها شيئاً لنَهلِكنّ .

فتأخير الشهر الحرام إلى شهر بعده ، تلاعبٌ بأحكام الحلال والحرام وهو من الكفر .

الحِيَل الشرعية

الحيل الشرعية إذا أدت إلى إبطال حكمة تشريعية

---

(١) ٣٧ ـ التوبة .

فحرام ، وإلا فلا :

فمن أمثلة الحيل الجائزة مايلي :

١ ـ احتال يوسف عليه السلام لابقاء أخيه بنيامين عنده في مصر ، فجعل صُواعَ الملك في رحل أخيه ، ليتّهم إخوته بالسرقة ، فيتوصل بسببها إلى إبقاء أخيه عنده .

وفي ذلك مصلحة له ولأخيه ، ولاخوته وأمه وأبيه ، وذلك بابقاء صلة بينه وبينهم ، حتى يرجعوا إليه ، وتقرّ عين أبيه به .

ولم يترتب عليها إبطال حكمة تشريعية ، في إبطالها مفسدة ظاهرة .

٢ ـ وقال تعالى في أيوب عليه السلام وامرأته :

وخذ ضِغثاً فاضرب به ولاتحنث ...(١)

وذلك أن أيوب عليه السلام مسّه الضُرّ ، وطال به السقم ، وصبرتْ زوجته على البلاء ، وأقامت على

---

(١) ص ـ ٤٤ .

خدمته ومواساته سنين ، فقالت له يوماً :

يأيوب ! ادعُ الله تعالى أن يكشف عنك الضُر .

فغضب لأنه كان يؤثر الصبر والرضا ، على ماقدَّر الله تعالى وقضى .

فقال لها : كم قضينا في النعيم ؟

قالت : ثمانين سنة .

قال : وكم قضينا في البلاء ؟

قالت : سبع سنين .

قال : فأنا استحي أن أسأل الله كشف البلاء قبل أن أقضي فيه ماقضيت في النعيم .

وحلف لئن شفاه الله ليضربنها مئة سوط .

فلما شفاه الله تعالى ، ولم تكن زوجته - وهي المرأة الصالحة - تستوجب هذه العقوبة ، أمره الله تعالى أن يأخذ بيده ضغثاً - أي قبضة من حشيش فيها الرطب واليابس ، وفيها قدرُ مئة عود فيضربها به .

وهذه حيلة كريمة فى تخليص هذه المرأة الصالحة من الضرب الكثير ، على أن يَبَرّ أيوب عليه السلام في قسمه ، ولايحنث .

٣ ـ وروي أنه اشتكى رجل من الأنصار ـ أي مرض ـ حتى أضنى ، فعاد جلدة على عظم ، فدخلت عليه جارية لبعضهم ، فهش لها ، فوقع عليها .

فلما دخل عليه رجال من قومه يعودونه ، أخبرهم بذلك ، وقال :

استفتوا لي رسول الله ﷺ ، فاني قد وقعت على جارية دخلتْ عليّ .

فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، وقالوا :

مارأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به ، لوحملناه إليك لتفسخّت عظامه ، ماهو إلا جلد على عظم . فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مئة شِمْراخ ـ أي عود ـ فيضربوه بها ضربة واحدة .(١)

(١) أبو داوود .

وذلك أنه كان عَزَباً وحده الجَلْد لاالرجم .

ـ فهذه حِيَلٌ شرعية ترتبت عليها مصالح مشروعة في أحوال خاصة ، ولم تتعطل معها حكمة التشريع ، التي تقضي باقامة الحدود زجراً للعصاة ، وحسماً لمادة الاجرام . وتطهيراً للمجتمع من الآثام .

وما كان من هذا القبيل فجائز .

ـ أما مايترتب عليه تعطيلٌ لحكمة التشريع ، فحرام .

ومن ذلك مايفعله بعضهم من عقد النكاح على امرأة ، عقداً صورياً ، لتصحبه في سفر ليس معها فيه محرَم ...

وكم وقع من جَرّاء ذلك مفاسد ومآثم !

ثم هم يكتفون بهذا العقد الصوري ، ولايرضَون بما يترتب عليه من أحكام شرعية من حقوق زوجية إذا رغب فيها الزوج ، وحقوق وراثة إذا مات أحدهما .

وفي ذلك تعطيل لحكمة التشريع في ذلك كله .

– ومن ذلك أيضاً الحيلة في الزكاة .

كتعمد الغني إخراج المال من ملكيته ، قبل أن يحول عليه الحول ، ثم استرداده بعد ذلك .

إذ يترتب على ذلك إبطال حكمة تشريع الزكاة ، التي هي حق الفقير ، والتي فيها حكمة اجتماعية كبرى ، لاسعادة للمجتمع إلا بها .

ومن ذلك أيضاً الحيل في الربا ، للتوصل إلى الربا بنصوص ظاهرها الجواز .

كالبيع بالعينة ؛ وهي : أن يبيع الرجل متاعه إلى أجل بمئة ليرة مثلاً ، ثم يشتريه في المجلس بتسعين ليرة نقداً ، ليسلم من الربا ، إذ يبقى له في ذمة الآخر عشر ليرات يطالبه بها ويؤديها الآخر إليه .

وقيل لهذا البيع ، عينة ، لأن مشتري السلعة إلى أجل ، يأخذ ثمنها عيناً ، أي نقداً حاضراً .

وفي ذلك إبطال لحكمة التشريع في تحريم الربا ، الذي يُثقل كاهل الفقير في وفاء ماعليه ، والاسلام دين

الرأفة والرحمة والجود والاحسان ، وإغاثة اللهفان .

الحكم بغير ما أنزل الله كفر

قال الله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون .(١)

ومن ذلك تعطيل الحدود الاسلامية ، وإبدلها بقوانين جزائية أخرى .

فالله تعالى شرع الحدود وهي عقوبات زاجرة ، لتجتث الجرائم من جذورها وتطهّر المجتمع من التعدي ، فيعيش الفرد آمناً على نفسه وماله ... وبهذا تتحقق سعادة المجتمع .

في الحديث الشريف : إقامة حدّ بأرض ، خير لأهلها من مطر أربعين صباحاً .(٢)

وليتهم إذ حكموا بغير ما أنزل الله ، استطاعوا أن يقمعوا الجرائم ، ويؤدبوا المجرمين . لكنهم على العكس من

(١) ٤٤ ـ المائدة .
(٢) ابن ماجه .

من ذلك ، فسحوا المجال للاجرام ، وجرّءوا الأنام على المعاصي والآثام .

الله تعالى أعلم بعباده ، فشرع لهم مايصلحهم :

ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟! (١)

الكفر بالجزء كفر بالكل

قال الله تعالى منددّاً على اليهود : وإذ أخذنا ميثاقكم : لاتسفكون دماءكم ، ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون .

ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون ـ أي تتعاونون ـ عليهم بالاثم والعُدوان ، وإن يأتوكم أُسارى تفادوهم ، وهو محرّم عليكم إخراجهم .

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟

فما جزاء من يفعل ذلك منكم ، إلا خزيٌ في

(١) ١٤ – الملك .

الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يُردّون إلى أشـــد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون .(١)

إن الله تعالى أخذ على اليهود أربعة عهود :

ترك القتل ، وترك الاخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أساراهم .

فأعرضوا عن كل ماأمروا به إلا الفداء ، فوبخهم الله على ذلك توبيخاً يُتلى ، فقال :

أفتؤمنون ببعض الكتاب - وهو التوراة - وتكفرون ببعض ..؟

أنكر الله تعالى على اليهود ، الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينـــة ما كانوا يعانون من القتال مع الأوس والخزرج .

وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا في الجاهلية عبّاد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة .

---

(١) ٨٤و٨٥ - البقرة .

وكان يهود المدينة ثلاث قبائل :

بنو قَيْنُقاع ، وبنو النضير ، حلفاء الخزرج .

وبنو قريظة ، حلفاء الأوس .

فكانت الحرب إذا نشبت بينهم ، قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهوديُّ الآخرُ من الفريق الآخر .

وذلك حرام عليهم في دينهم ونصِّ كتابهم .

ويخرجونهم من بيوتهم ، وينتهبون مافيها من الأثاث والأمتعة والأموال .

ثم إذا وضعت الحرب أوزارها ، فكّوا أساراهم من الفريق الآخر عملاً بحكم التوراة .

ولهذا قال تعالى : أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ وقال تعالى : إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون « نؤمن ببعض الكتب ونكفر ببعض » ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا .

أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهينا .(١)

وإنما كان التفريق في الايمان بين الله ورسله كفرا ، لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل ، فاذا جحدوا الرسل ، ردّوا عليهم شرائعهم ، ولم يقبلوها منهم ، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها ، فكان كجَحد الخالق سبحانه ، وجَحدُ الخالق كفر ، لما فيه من ترك الطاعة والعبودية له .

وكذلك التفريق بين رسله في الايمان بهم كفر .

فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

وكفرهم برسوله كفرٌ بـه سبحانه وتعالى ، وكفرٌ بكل رسول مبشِّر به .

فالايمان كلّ لايتجزأ ، وليس بمؤمن من آمن بالله ،

---

(١) ١٥٠و١٥١ ــ النساء .

ولم يؤمن بملائكته .

ولا من آمن بملائكته ، ولم يؤمن برسله وكتبه .

ولامن آمن بكل هذا ، ولم يؤمن باليوم الآخر .

ولامن آمن ببعض ، وكفر ببعض .

ومن أنكر آية من كتاب الله كفر .

أو أنكر فرضية الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو الحج كفر .

أوأنكر شيئاً مما حرّم الله تعالى ، كقتل النفس بغير الحق ، وكالربا ، والزنى ، والخمر ، والميسر ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وتبرج النساء وسفورهن .. كفر .

عمى الكافر عن آيات الله تعالى

ـ قال الله تعالى في ذم الكافرين :

صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لايرجعون .(١)

---

(١) ١٨ ـ البقرة .

صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لايعقلون .(١)

ـ وقال تعالى لافتاً أنظار العباد إلى مظاهر قدرته ، وعجائب مخلوقاته ، ليدلهم ذلك على الايمان واليقين :

أوَلم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم .(٢)

وفي الأرض آيات للموقنين .

وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟(٣)

ومن هذه الآيات حياة الأرض بالمطر ، وظهور النبات فيها ، ثم صيرورته هشيماً تذروه الرياح ...

ومن هذه الآيات تقدير الأقوات في الأرض قواماً للحيوانات .

وهداية كل حيوان إلى مافيه صلاحه وبقاء حياته .

إلى غير ذلك مما لايدخل تحت حصر ، ولوتتبعه

---

(١) ١٧١ ـ البقرة .　(٢) ٧ ـ الشعراء .
(٣) ٢٠و٢١ ـ الذاريات .

الانسان لأخذه العجب ، ووقف ذاهلاً أمام قـــدرة الله تعالى ودقائق تدبيره !

ومن الآيات الباهرات في النفوس البشرية :

خلقُهـا في أحسن تقـويم ، وإدراك المحسوسات بالحواس ، من سمع وبصر وذوق وشمّ ولمس .

والقناة الهضمية ، والدورة الدموية ، والجملة العصبية .

إلى غير ذلك ممـا لايُعَدّ ولايحصى ، ومايعلمـــه الانسان منها قليل من كثير .

ومن مواطن العبرة ماذكره الله تعالى في قوله :

وإن لـكم في الأنعام لعبرة : نُسقيكم مما في بطونه من بين فَرْثٍ – أي زبل – ودمٍ لبناً خالصـــاً سائغاً للشاربين .(١)

أي لذيذاً هيّناً لايَغَصّ به من شربه .

نبّه الله تعـالى عظيم قدرته بخروج اللبن اللذيذ ،

---

(١) ٦٦ – النحل .

خالصاً بين الأقذار والدم ، وكل ذلك كريه تعافه النفس .

وهذا اللبن مكوّن من عناصر ، ولو أعطيتْ عناصره إلى أعلم العلماء ، وأكمل المخابر ، وكُلّفوا أن يصنعوا منها ذرة من اللبن ، لوقفوا حيارى عاجزين ، في الوقت الذي تقوم فيه بهذه الوظيفة خليّة الثدي ، التي لا تُرى بالعين المجردة ، والتي لاتزيد عن كونها خلية صغيرة مكوّنه من لحم ودم .

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب : أوألقى السمع وهو شهيد .(١)

ويريكم آياته فأيَّ آيات الله تنكرون .(٢)

ـ ومن الآيات التي عمي عنها الكافرون ، ولفتهم الله تعالى إليها ماجاء في قوله تعالى :

أوَلم يَرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ـ أي قطعة ملتئمة ـ ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ؟ أفلا يؤمنون ؟(٣)

---

(١) ٣٧ ـ ق . (٢) ٨١ ـ غافر . (٣) ٣٠ الأنبياء .

- كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا - أي عدما - فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون .(١)

- أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ؟

فإنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .(٢)

فعمى الأبصار ، يحرم صاحبه رؤية المرئيات المحسوسة .

وعمى القلوب ، يحرم صاحبه العظة والاعتبار والهدى

- أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم.(٣)

أي سلبهم الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم .

- وقال تعالى معزياً رسوله ﷺ في كفر الكافرين :

أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون ؟ (٤)

---

(١) ٢٨ - البقرة . (٢) ٤٦ - الحج .
(٣) ٢٣ - محمد «ص» . (٤) ٤٣ - يونس .

الكفر بالله جهل وعمه

الايمان بالله من بدهيات العقل السليم .

قال الله تعالى في محاجّة الرسل أقوامهم :

قالت لهم رسلهم : أفي الله شكّ فاطرِ السموات والأرض ...؟(١)

فان شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة على السموات والأرض ومافيها ، فلا بد لكل هذه الموجودات من صانع ، وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ومليكه .

فمن أنكر الخالق مع رؤية المخلوق ، كان من أحمق الحمقى ، وأجهل الجاهلين .

نظر أعرابي في السماء والأرض نظرة اعتبار ، حرّكت في قلبه الايمان والاذعان ، فقال :

الماء يدل على الغدير ، وأثر الأقدام على المسير ، أفسماءٌ ذات أبراج ، وأرض ذات فِجاج ، ألا تدلان على

(١) ١٠ ـ ابراهيم .

العليم الخبير ؟!

ثم إن الانسان يرى خلقْ الانسان في بطن أمه ، وتطورات نموّه ، ثم ولادته طفلاً ، ثم ترعرعه شيئاً فشيئاً ، حتى يكون بشراً سوياً ...

فأيّ حمق أنكى ، وأيّ جهل أشد ، ممن يرى هذا كله ، ثم هو ينكر وجود الصانع ، ويجحد الخالق المبدع ؟!

سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون .(١)

وماقدَروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضتُه يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .(٢)

تكذيب الرسل دَيْدَن الكافرين

قال الله تعالى : ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه : إني لكم نذير مبين .

(١) ٣٦ ــ يس .

(٢) ٦٧ ــ الزمر .

أن لاتعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم .

فقال الملأ الذين كفروا من قومه : مانراك إلا بشراً مثلَنا ، ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأي ـ أي ظاهرَ الرأي ـ ومانرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين .(١)

ـ وبعد أن ذكر الله تعالى ماوقع لقوم نوح من الطوفان جزاء التكذيب قال :

ثم أرسلنا رسلَنا تَتْرى ـ أي متتابعين ـ كلما جاء أمةً رسولُها كذّبوه ، فأتْبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث ـ أي اخباراً وعبراً يُضرب بهم المثل ـ فبعداً لقوم لايؤمنون .(٢)

ـ وقال تعالى : وإلى عاد أخاهم هودا .

قال : ياقومِ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟

---

(١) ٢٥ـ٢٧ ـ هود .   (٢) ٤٤ المؤمنون .

قال الملأ الذين كفروا من قومه :

إنا لنراك في سفاهة ـ أي جنون ـ وإنا لنظنك من الكاذبين .(١)

ـ وذكر الله تعالى بعض الأمم ، ثم قال :

إنْ كلّ إلا كذّب الرسلَ ، فحقّ عقاب .(٢)

ـ وقال الله تعالى يصوّر عناد الكافرين وتكذيبهم الرسل :

ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس ، فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا :

« إن هذا إلا سحر مبين » .(٣)

أي لو عاينوا ذلك ومسّوه بالأيدي كما اقترحوا ، وبالغوا في تقليبه ، ليرتفع كل ارتياب ، ويزول عنهم كل إشكال ، لعاندوا فيه ، وبقوا على كفرهم ، وقالوا :

« سحر مبين » « إنما سُكّرتْ أبصارنا »

(١) ٦٥و٦٦ ـ الاعراف . (٢) ١٤ ـ ص .
(٣) ٧ ـ الانعام .

و « مُسحِرنا » ...

وهذه الآية جواب لقولهم :

حتى تُنزِّل علينا كتاباً نقرؤه .

ـ وقال تعالى : ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنّة ـ أي أغطية ـ أن يفقهوه ، وفي آذانهم وَقْرا ـ أي ثِقَلا ـ وإن يَرَوا كل آية لايؤمنوا بها ، حتى إذا جاءوك يجادلونك ، يقول الذين كفروا :

« إنْ هذا إلا أساطير الأولين » .(١)

ـ وقال تعالى : ويقول الذين كفروا : « لستَ مُرسَلا » !

قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب .(٢)

وهم الذين آمنوا من أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وتميم الداري ، والنجاشي ، وأصحابه .

(١) ٢٥ ـ الانعام . (٢) ٤٣ ـ الرعد .

- وقال تعالى لنبينا ﷺ : فان أعرضوا فقل :

أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود - أي هلاكاً مثل هلاكهم - إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم - أي أرسل إليهم وإلى من قبلهم - ألا تعبدوا إلا الله .

قالوا : لوشاء ربنا لأنزل ملائكة ، فانا بما أرسلتم به كافرون .(١)

- وقال تعالى في كفار قريش :

وعجبوا أن جاءهم منذر منهم .

وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب .

أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عُجاب - أي عجيب - !(٢)

- وقال تعالى معزّياً نبينا ﷺ :

فان كذّبوك فقد كُذّب رسل من قبلك ، جاءوا

(١) ١٣و١٤ - فصلت . (٢) ٤و٥ - ص .

بالبينات والزُبُر ، والكتاب المنير .[1]

- وقال تعالى في مكة وتكذيب أهلها ، وما لاقوا من جرّاء ذلك :

وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنة ، يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكان ، فكفرتْ بأنعمُ الله ، فأذاقها الله لباس الخوف والجوع بما كانوا يصنعون .

ولقد جاءهم رسول منهم ، فكذبوه ، فأخذهم العذاب - وهو ماأصابهم من البلاء - وهم ظالمون .[2]

ايذاء الكافرين الرسل

من سنة الله تعالى في عبـاده الابتلاء والاختبار ، سواء في ذلك الرسل الكرام وغيرهم :

قال الله تعالى : وقال الذين كفروا لرسلهم :

لنخرجنكم من أرضنا ، أولتعودُنّ في ملّتنا .

---

(١) ١٨٤ - آل عمران . (٢) ١١٢و١١٣ - النحل .

فأوحى إليهم ربهم : لنهلكَنَّ الظالمين .(١)

ـ وقال تعـــالى : وإذا رآك الذين كفروا ، إن يتّخذونك إلا هزُوا :

أهذا الذي يذكر آلهتكم ؟!

وهم بذكر الرحمن هم كافرون .(٢)

ـ وأمر الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ أن يصبر على أذى قومه ، كما صبر أولو العزم والصبر ممن قبله من الرسل فقال عز وجل :

فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولاتستعجل لهم (٣)...

قال المفسرون : أولو العزم من الرسل خمسة :

نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) ١٣ ـ ابراهيم . (٢) ٣٦ ـ الانبياء .
(٣) ٣٥ ـ الاحقاف .

ـ وقد رأى رسول الله ﷺ من المشركين كثير الأذى وعظيم الشـــدة ، خصوصاً إذا ذهب إلى الصـلاة عند البيت .

وأعانه الله تعالى فصبر :

صور من أذى المشركين النبي ﷺ

ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال :

كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد ، وهو يصلي ، فقال أبو جهل :

ألا رجلٌ يقوم إلى فَرْث جَزور بني فلان ، فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟

فقام عقبة بن أبي مُعَيط ، وجاء بذلك الفَرث ، فألقاه على النبي ﷺ وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنـه ، لضعفهم عن مقاومة عدوهم .

ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً ، حتى جاءت

فاطمة ابنته فأخذته عنه ورمته .

فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح ، فقال : « اللهم عليك بالملأ من قريش » وسمى أقواماً .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : فرأيتهم قتلوا يوم بدر .(١)

ورحم الله القائل :

كم أساءوه كي يكفَّ فما كفـ — ـتَّهْ عن أمر ربه الأسواءُ !
واستوى منهم لديه جفاءٌ — ووفاء والضرّ والسراء
رُبَّ يومٍ أتاه عقبة أشقى الـ — ـقوم يسعى وفي يديه سلاء
بخبيثٍ أتى خبيث وهل يأ — تي بغير الخبائث الخبثاء ؟
قد رماه حين السجود عليه — وانثنى منه تضحك الأشقياء
فأطال السجود حتى أتتْه — فأزالته بنته الزهراء
ليت شعري إذ ذاك ما منع الأر — ض من الخسْف أو تخرّ السماء ؟
قوم نوح لم يفعلوا مثل هذا — ولقد أغرق البرية ماء
غير أن الغريم كان كريماً — وحليماً فأُخّر الاقتضاء

(١) البخاري .

- وبينما كان رسول الله ﷺ يصلي يوماً في حجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيط ، فوضع ثوبه في عنق رسول الله ﷺ ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه ، حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال :

أتقتلون رجلاً أن يقول « ربيَ الله » وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟.(١)

هجرة النبي ﷺ الى الطائف

لما رأى النبي ﷺ استهانة قريش به ، أراد أن يتوجَّه إلى ثقيف بالطائف - على ٩٠ كيلو متراً من مكة المكرمة - يرجو منهم نصرته على قومه ، ومساعدته حتى يبلغ شريعة ربه ، لأنهم أقرب الناس إلى مكة ، وله فيهم قرابة .

فلما توّجه إليهم ، ومعه مولاه زيد بن حارثة رضي

---

(١) ٢٧ - المؤمن . والحديث رواه البخاري .

الله عنه ، قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة :

عبد ياليل ؛ ومسعود ، وحبيب ، أولاد عمرو بن عمير الثقفي .

فعرض عليهم أن ينصروه ، حتى يؤدي دعوته :

فردّوا عليه رداً قبيحاً ، ولم يَرَ منهم خيراً .

وحينئذ طلب منهم أن لا يشيعوا ذلك عنه ، كيلا تعلم قريش ، فيشتد أذاهم ، لأنه استعان عليهم بأعدائهم .

فلم تفعل ثقيف مارجاه منهم رسول الله ﷺ ، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ، ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه .

وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كرم ، واستظل بها ، ودعا الله تعالى هناك ، فقال :

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس .

يأرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ، إلى من تكِلني ؟

إلى عدوٍّ بعيـــد يتجهَّمني - أي يستقبلني بوجه عبوس كريه - ؟

أم إلى صديق قريب ملّكته أمري ؟

إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي .

أعوذ بنـــور وجهك الذي أضاءت له السموات ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليـه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بي غضبك ، أو يحِـلّ بي سخطك ، ولك العُتبى - أي الرضا - حتى ترضى .

ولاحول ولاقوة إلا بك .(١)

وفي الحديث الشريف ماخلاصته : أن الله تعـــالى أرسل ملك الجبال مـع جبريل عليهما السلام ، فقـال ملك الجبال للنبي ﷺ :

---

(١) الطبراني .

إن الله قد بعثني إليك ، لتأمرني بما شئت ، فان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ جبلَيْ مكة ـ لفعلت .

فقال رسول الله ﷺ : أرجو أن يخرج الله من من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً . اللهم اهدِ قومي فانهم لا يعلمون .(١)

ورحم الله القائل :

لو رأيت النبي من بعدُ في الطا ـ ئف سالت بالحصْبِ منه الدماء
وسمعت التخيير فيهم من الل ـ ه فكان اختيارَه الابقـــاء
كنتَ شاهدتَ أعظم الخلق حلماً وتمنيت أن يعمّ الفنـــاء
كان يلقى عنه الحجارة زيدٌ إن روحي لنعل زيد فداء

ـ ولما رجع النبي ﷺ من الطائف ، لم يتمكن من دخـــول مكة ، لما علمه كفار قريش من أنه توجّه إلى الطائف ، يستنصر بأهلها عليهم .

فأرسل إلى المطعم بن عدي وهو مشرك ، يخبره أنه سيدخل مكة في جواره ، فأجابه إلى ذلك .

---

(١) البخاري ومسلم .

ولم يزل أذى المشركين في ازدياد حتى اضطر النبي ﷺ والمسلمون إلى الهجرة إلى المدينة .

تكذيب الكافرين بالقرآن

ـ قال تعالى : وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه .

ولو ترى إذِ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعضٍ القول .

يقول الذين استُضعِفوا : لولا أنتم لكنا مؤمنين(١)

ـ وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قالوا :

ماهذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم .

وقالوا : ماهذا إلا إفكٌ مفترىً .

وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين .(٢)

---

(١) ٣١ ـ سبأ . (٢) ٤٣ ـ سبأ .

ـ وقال الذين كفروا : لاتسمعوا لهذا القرآن ، والْغَوْا فيه لعلكم تَغلبون .(١)

لما أعجزهم القرآن ، حاولوا أن يكثروا الكلام عند تلاوته ، حتى لاتظهر بلاغتـه ، ولايستميل القلوب ، وهذه إحدى محاولات الضعيف المغلوب .

ـ وقال تعالى : ذَرني وَمن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالاً ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهّدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد .

كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأُرهقه صَعودا .

إنه فكّر وقدّر ، فقتل كيف قدّر ، ثم قُتِل كيف قدّر !

ثم نظر ، ثم عبس وبَسَر ، ثم أدبر واستكبر .
فقال : إنْ هذا إلا سحرٌ يُؤثر ، إنْ هذا إلاقولُ البشر . (٢)

نزلتْ هـذه الآيات في الوليد بن المغـيرة المخزومي ،

(١) ٢٦ - فصلت . (٢) ١١ـ٢٥ ـ المدثر .

وكان يسمى « الوحيد » في قومه .

روي أنه لما نزل قوله تعالى : حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم .

غافرِ الذنب وقابلِ التوب ، شـديد العقاب ذي الطول ، لاإله إلا هو ، إليه المصير .(١)

سمع الوليد النبي ﷺ يقرؤها ، فقال :

والله لقد سمعت منه كلاماً ، ماهو من كلام الانس ، ولامن كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليـه لطُلاوة ـ أي بهجة ـ وإن أعـلاه لمثمر ، وإن أسفله لمُغدِق ، وإنه ليعلو ولايُعلىَ عليه ، ومايقول هذا بشر .

فقالت قريش : صبأ الوليد ـ أي خرج عن دينه ـ لتَصبُوَنّ قريش كلها .

وكان يقال للوليد : ريحانة قريش .

فقال أبو جهل : أنا أكفيـكموه .

---

(١) ١ـ٣ ـ غافر .

فمضى إليه حزينا .

فقال له : مالي أراك حزيناً ؟

فقال له : ومالي لاأحزن ، وهذه قريش ، يجمعون لك نفقة ، يعينونك بها على كبرَ سنك ، ويزعمون أنك زيّنتَ كلام محمد ، وتدخل على ابن أبي كبشة ، وابن أبي قحافة – يعني أبا بكر – لتنال من فضل طعامها .

فغضب الوليد ، وتكبّر ، وقال :

أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه ، فأنتم تعرفون قدر مالي ، واللاتِ والعُزّى مابي حاجة إلى ذلك .

وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون .

فهل رأيتموه قطّ يخنق ؟

قالوا : لا والله .

قال : وتزعمون أنه شاعر .

فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟

قالوا : لا والله .

قال : فتزعمون أنه كذاب .

فهل جرّبتم عليه كذباً قط ؟

قالوا : لا والله .

قال : فتزعمون أنه كاهن .

فهل رأيتموه تكهّن قط ؟

قالوا : لا والله .

وكان النبي ﷺ يسمى « الصادق الأمين » من كثرة صدقه وعِظم أمانته .

فقالت قريش للوليد : فما هو ؟

ففكّر في نفسه ، ثم عبس ، فقال : ماهو إلا ساحر !

أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ !

فأنزل الله تعالى هذه الآيات في ذمه ووعيده .

- وروي أن الملأ من قريش قالوا :

قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر ، فكلمه ثم أتانا ببيان أمره .

فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علماً لايخفى إن كان كذلك .

فقالوا ائته فحدّثه .

فأتى النبي ﷺ ، فقال له :

يامحمد ! أنت خير أم قصيّ بن كلاب ؟

أنت خير أم هاشم ؟

أنت خير أم عبد المطلب ؟

أنت خير أم عبد الله ؟

فبمَ تشتم آلهتنا ، وتضلّل آباءنا ، وتسفّه أحلامنا ، وتذم ديننا ؟

فان كنت إنما تريد الرياسة ، عقدنا إليك ألويتنا ، فكنت رئيساً مابقيت .

وإن كنت تريد الباءة - يعني النكاح - زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت .

وإن كنت تريد المال ، جمعنا لك ماتستغني به أنت وعقبك - أي أولادك - من بعدك .

وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن ، قد غلب عليك ، بذلنا لك أموالنا في طلب ماتتداوى به ، أو نغلب فيك .

والنبي ﷺ ساكت . فلما فرغ قال :

قد فرغت ياأبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع مني ؟

قال : أفعل .

فقال ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم .

حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم .

كتاب فُصِّلت آياته ، قرآناً عربياً لقوم يعلمون ...
حتى بلغ قوله تعالى : فان أعرضوا ، فقل :
أنذرتكم صاعقةً مثلَ صاعقة عاد وثمود ..(١)
أي هلاكاً كهلاكهم .

فوثب عتبة ، ووضع يده على فم النبي ﷺ ، وناشده الله والرحم لَيَسكتَنّ .

ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش .

فجاء أبو جهل فقال :

أصَبوتَ إلى محمد ؟ أم أعجبك طعامه ؟

فغضب عتبة ، وأقسم أن لايكلم محمداً أبدا .

ثم قال : والله لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالاً ، ولكني لما قصصت عليه القصة ، أجابني بشيء ، والله ماهو بشعر ولا كهانة ولاسحر ، ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله :

---

(١) ١ــ١٣ ــ فصلت .

فأنذرتكم صاعقة مثلَ صاعقة عاد وثمود ...

قال : فأمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكفّ ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب !

وفي رواية : أن النبي ﷺ ، قرأ : حم ، فصلت ، حتى انتهى إلى السجدة فسجد ، وعتبة مُصغٍ يستمع ، وقد اعتمد على يديه وراء ظهره .

فلما قطع رسول ﷺ القراءة ، قال له :

يا أبا الوليد ! لقد سمعت الذي قرأت عليك ، فأنت وذاك .

فانصرف عتبة إلى قريش في ناديها .

فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد ، بغير الوجه الذي مضى من عندكم .

ثم قالوا : ماوراءك ياأبا الوليد ؟

قال : والله لقد سمعت كلاماً من محمد ، ماسمعت مثله

قط ، والله ماهو بالشعر ولابالكهانة ، فأطيعوني في هذه ، وأنزلوها بي :

خلّوا محمداً وشأنه ، واعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لما سمعت من كلامه نبأ ، فان أصابته العرب ، كُفيتموه بأيدي غيركم ، وإن كان ملكاً أونبياً ، كنتم أسعد الناس به ، لأن ملكه ملككم ، وشرفه شرفكم .

فقالوا : هيهات ! سحرك محمد ياأبا الوليد !

قال : هذا رأيي لكم ، فاصنعوا ماشئتم .

حجة الكافر داحضة

قال تعالى : ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ؟

إذ قال إبراهيم : ربيَ الذي يحي ويميت .

قال : أنا أحيي وأميت .

قال إبراهيم : فان الله يأتي بالشمس من المشرق ،

فأْتِ بها من المغرب .

فبُهتَ الذي كفر ، والله لايهدي القوم الظالمين (١)

هذا الذي حاجّ إبراهيم ، هو النُمرود ملك زمانه .

وهو أول من تجبّر ، وهو صاحب الصرح ببابل .

دعاه إبراهيم عليه السلام إلى الايمان بالله تعالى ، وذكر من عظمة الله تعالى وقدرته ماذكر ، وأنه هو الذي يحيي ويميت .

فقال النمرود : أنا أحيي وأميت .

فأحضر رجلين ، فقتل أحدهما ، وأرسل الآخر ، وقال :

أحييتُ هذا ، وأمتُّ هذا !

فردّ عليه إبراهيم عليه السلام بأمر الشمس .

فبُهت وانقطعت حجته .

وكل حجج الكافرين في تكذيبهم وانكارهم داحضة .

---

(١) ٢٥٨ ـ البقرة .

قال الله تعالى : فلله الحجـــة البالغـة ، فلو شاء لهداكم أجمعين .(١)

ترغيب الكافر بالايمان

قال الله تعالى : قل للذين كفروا : إن ينتهوا يُغفَر لهم ماقد سلف ...(٢)

وفي الحديث الشريف : الاسلام يَجُبُّ ـ أي يقطع ويهدم ـ ماقبله .(٣)

وقد رغّب النبي ﷺ الناس بالايمان ، فبذل الكثير من الغنائم المشركين ، يتألفّهم به على الايمان .

اعطى أحداً غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه ، وقال :

ياقوم ! أسلموا ، فان محمـــداً يعطي عطاء من لايخشى الفقر .

وأعطى كثيرين منهم من الابل مئة ، مئة . فأسلموا

---

(١) ١٤٩ ـ الأنعام . (٢) ٣٨ ـ الأنفال .
(٣) البخاري ومسلم .

وعرفوا في السيرة بأصحاب المئين .

وأرسل علياً كرم الله تعالى وجهه إلى اليمن وقال له :

لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النعَّم .(١)

وحمر النعَم هي الابل ، وهي أنفس أموال العرب .

لا عذر للكافر

قال الله تعالى : يا أيها الذين كفروا ، لا تعتذروا اليوم ، إنما تُجزَون ما كنتم تعملون .(٢)

فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتُهم ، ولا هم يُستعتَبون .(٣)

أي ليس حالهم حال من يُستعتَب ويرجع .

ـ ووصف الله تعالى يوم القيامة ، فقال :

(١) البخاري ومسلم .
(٢) ٧ ـ التحريم .
(٣) ٥٧ ـ الروم .

هذا يوم لاينطقون ، ولايؤذن لهم فيعتذرون .(١)

فيوم القيامـــة له مواطن ومواقيت ، ولـكل منها أحوال خاصة ، وهـــذا من المواقيت التي لايتكلم فيها الـكافرون ، ولايؤذن لهم في الاعتذار والتنصّل .

شر الكفر يعود على صاحبه

قال الله تعالى : ومن كفر فعليه كفره .

– أي جزاؤه وعقوبته –

ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يَمْهَدون .(٢)

إن تكفروا فان الله غني عنـكم ...(٣)

إن تـكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً ، فان الله لغنيٌ حميد .(٤)

ومن كفر فان الله غني عن العالمين .(٥)

---

(١) ٣٥و٣٦ – المرسلات .

(٢) ٤٤ – الروم .

(٣) ٧ – الزمر .

(٤) ٨ – إبراهيم .

(٥) ٩٧ – آل عمران .

إن الذين اشتروا الكفر بالايمان فلن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم .(١)

وفي الحديث القدسي : ياعبادي ! إنكم لم تبلغوا ضرّي فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

ياعبادي ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، مازاد ذلك في ملكي شيئاً .

ياعبادي ؟ لوأن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، مانقص ذلك من ملكي شيئاً ..(٢)

إلى أن قال تبارك وتعالى :

ياعبادي ! إنما هي أعمالكم ، أُحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلايلومن إلا نفسه .

---

(١) ١٧٧ _ آل عمران .

(٢) مسلم .

مجانبة الكفر حيطة

قال الله تعالى مبيناً الخطر العظيم على من كفر بالله وكذّب بالقرآن :

قل : أرأيتم إن كان من عند الله ، ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو في شقاق بعيد ؟.(١)

وقال عز وجل : فكيف تتقون ـ إن كفرتم ـ يوماً يجعل الولدان شيبا .(٢)

ففي الايمان ضمان النجاة من العذاب ، وفي الكفر شر محقّق عند من آمن ، فينبغي للعاقل أن يحتاط لنفسه بالايمان المنجي من العذاب .

وعن هذا عبّر القائل :

زعم المنجّمُ والطبيب كلاهما : لا تُحشر الاجساد، قلتُ: إليكما
إن صحّ قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صحَّ قولي ، فالخسار عليكما

(١) ٥٢ ـ فصلت . (٢) ١٧ ـ المزمل .

الكافر في ضلال

قال الله تعالى : ومن يتبدّل الكفر بالايمان ، فقد ضل سواء السبيل .(١)

ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالاً بعيدا .(٢)

وأيّ ضلال أدهى من ضلالِ مَن ضل عن حقائق ثابتة في هذا الوجود ، من وجود الاله تبارك وتعالى ، ولقاء الله عز وجل في الآخرة ؟

إنه ضلال يؤدي بصاحبه إلى شقاء الدنيا والآخرة ، وإلى الخلود في العذاب الاليم .

الكافر ممقوت

قال الله تعالى : قل : أطيعوا الله والرسول ، فان تولّوا فان الله لايحب الكافرين .(٣)

(١) ١٠٨ ـ البقرة . (٢) ١٣٦ ـ النساء .
(٣) ٣٢ ـ آل عمران .

والله لايحب كل كفار أثيم .(١)

إن الذين كفروا ينادَون : لمَقتُ الله أكبر من مقتكم أنفسكم ، إذ تُدعَون إلى الايمان فتكفرون .(٢)

يمقت الكافر نفسه يوم القيامة أشد المقت حين يصير إلى عذاب .

فتقول الملائكة للكافرين وهم في النار : لمَقتُ الله إياكم إذ أنتم في الدنيا ، وقد بعث إليكم الرسل فلم تؤمنوا – أشد من مقتكم أنفسكم اليوم .

والمقت : أشد البغض .

فالكافر يمقت نفسه لانها سوّلت له اتباع الباطل في الدنيا ، فأعماه هواها عن الايمان ، الذي هو سبب النجاة .

– وقال تعالى : ولايزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ...(٣)

(١) ٢٧٦ – البقرة . (٢) ١٠ – غافر .
(٣) ٣٩ – فاطر .

وفي الحديث الشريف : ... وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل ، فيقول :

إني أبغض فلاناً فأبغضه .

فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء :

إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه .

ثم توضع له البغضاء في الارض .(١)

فالكافر ممقوت عند الله في الدنيا والآخرة ، وممقوت عند الناس .

شطط الكافر وعناده

قال الله تعالى : ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم : قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لايعلمهم إلاالله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردّوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أُرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا

(١) مسلم .

إليه مريب .(١)

- أي موجبٍ للريبة -

- وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام :

قال : ربِّ إني دعوت قومي ليلاً ونهارا .

فلم يزدْهم دعائي إلا فرارا .

وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصرّوا واستكبروا استكبارا .(٢)

ومن ذلك شطط المشركين من قريش ، فانهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ، ولم يرضوا به معجزة ، اجتمع رؤساؤهم ، مثل :

عُتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبي سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأبي جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، وأبي البَخْتَري ، والوليد بن المغيرة ، وغيرهم...

---

(١) ٩ - ابراهيم . (٢) ٦و٧ - نوح .

اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

ابعثوا إلى محمد ، فكلموه وخاصموه ، حتى تعذروا فيه .

فبعثوا إليه أن أشراف قومك ، قد اجتمعوا إليك ليكلموك ، فأْتِهم .

فجاءهم رسول الله ﷺ ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بَدْو .

وكان رسول الله ﷺ حريصاً عليهم ، يحب رشدهم ، ويَعِزّ عليه عنتهم - أي وقوعهم في شدة -

حتى جلس إليهم ، فقالوا له :

يامحمد ! إنا قد بعثنا إليك ، لنكلمك ، وإنا والله مانعلم رجلاً من العرب ، أدخل على قومه ما أدخلت على قومك :

لقد شتمتَ الآباء ، وعبت الدين ، وشتمتَ الآلهة ،

وسفّهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة ...

فما بقي أمرٌ قبيح ، إلا قد جئته فيما بيننا وبينك .

فان كنت إنما جئت بهذا الحديث ، تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسوّدك علينا .

وإن كنت تريد به ملكاً ، ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً – أي تابعاً من الجن – تراه قد غلب عليك ، فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك ، حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : مابي ماتقولون ، ماجئت بما جئت به ، أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم .

ولكنّ الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل عليّ

كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ماجئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ ، أصبرْ لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : يامحمد ! فان كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فانك قد علمت أنه ليس من الناس أحد ، أضيق بلداً ، ولا أقل ماء ، ولاأشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك ، الذي بعثك بما بعثك به ، فليْيُسير عنا هذه الجبال ، التي قد ضيّقتْ علينا ، ولْيبْسط لنا بلادنا ، وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا قصيّ بن كلاب ، فانه كان شيخ صدق ، فنسأله لهم عما تقول : أحق هو أما باطل ؟

فان صدّقوك ، وصنعت ماسألناك ، صدّقناك ، وعرفنا بـه منزلتك من الله تعالى ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : مابهذا بُعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به ، وقد بلغتكم

ماأُرسلت به إليكم ، فان تقبلوه ، فهو حظكم في الدنيا والآخره ، وإن تردّوه عليّ ، أصبرْ لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فاذا لم تفعل هذا انا ، فخذ لنفسك !

سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ، ويراجعنا عنك .

واسأله أن يجعل لك جناناً وقصوراً ، وكنوزاً من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما نراك تبتغي . فانك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ماأنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وماُبعثت بهذا إليكم ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فان تقبلوا مني ماجئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ ، أصبرْ لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء علينا كِسَفا ـ أي قطعاً ـ كما

زعمت أن ربك إن شاء فعـــل ، فانا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله عز وجل ، إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا : يامحمد ! أفمـا علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك مانطلب ، فيتقدّم إليك ، فيعلّمك ماتراجعنا به ، ويخبرك بما هو صانع في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ماجئتنا به ؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له « الرحمن » وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا إليك يامحمـد ، وإنا والله لانتركك ومابلغت منا ، حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله .

وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً ـ أي مقابلةً وعياناً ، أو جماعة ـ

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ ، قام عنهم ، وقام

معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ـ وهـــو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال له :

يامحمـد ! عرض عليك قومك ماعرضوا ، فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بهـا منزلتك من الله كما تقول ، ويصدّقوك ويتـبّعوك ، فلم تفعل !

ثم سألوك أن تأخذ لنفسك مايعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله فلم تفعل !

ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ماتخـــوفهم به من العذاب ، فلم تفعل !

فوالله لا أومن بك أبداً ، حـــتى تتخذ إلى السماء سلمّا ، ثم ترقى فيـه ، وأنا أنظر ، حتى تأتيها ، ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة ، يشهدون لك أنك كما تقول .

وايم الله لوفعلتَ ذلك ماظننت أني أصدّقك !

ثم انصرف ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً ، لما فاته مما كان يطمع به من قومه ، حين

دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه .

فأنزل الله تعالى : وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفْجُرُ لنا من الأرض ينبوعا .

أو تكونَ لك جنة من نخيل وعنب ، فتُفجّرَ الأنهار خلالها تفجيرا .

أو تُسقِط السماء -كما زعمتَ- علينا كِسَفا ، أوتأتي بالله والملائكة قبيلا .

أو يكون لك بيت من زُخرف - أي ذهب - أوترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه .

قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشيراً رسولا ؟[1]

قال بعض الملحدين : ليس هذا جواباً مقنعاً !

وغلطوا ، لأنه أجابهم فقال :

إنما أنا بشر ، لا أقدر على شيء مما سألتموني ،

---

(١) ٩٠و٩٣ - الاسراء .

وليس لي أن أتخيرّ على ربي ، ولم تكن الرسل قبلي يأتون أممهم بكل مايريدونه ويبغـــونه ، وسبيلي سبيلهم ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله تعالى من آياته الدالة على صحة نبوتهم ، فاذا أقاموا عليهم الحجـــة ، لم يجب لقومهم أن يقترحوا غـــيرها ، ولو وجب على الله أن يأتيهم بـكل مايقترحونه من الآيات ، لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل ، ولوجب لـكل إنسان أن يقول :

لاأومن حتى أُوتىَ بآية خلاف ماطلب غيري .

وهذا يئول إلى أن يكون التدبير إلى الناس .

وإنما التدبير إلى الله تعالى وحده .

قال الله تعالى : ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن قالوا :

أبعث الله بشراً رسولا ؟!

قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزّلنا عليهم من السماء ملـكاً رسولا .(١)

(١) ٩٥ ـ الاسراء .

ـ وقال تعالى : وقالوا : لولا أُنزل عليه مَلَك .

ولو أنزلنا ملَكاً لقضي الأمر ، ثم لا يُنظرون(١)

فلو رأوا الملك على صورته لماتوا ، إذ لا يطيقون رؤيته

ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، ولَلَبسنا عليهم مايلبِسون .(٢)

أي لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته ، إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة ، لأن كل جنس يأنس بجنسه ، وينفر من غير جنسه ، فلوجعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملَكاً ، لنفروا من مقاربته ، ولما أنِسوا به ، ولداخلهم من الرعب من كلامه مايكفّهم عنه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تتحقق المصلحة .

ولو نقله عن صورة الملائكة ، إلى مثل صورتهم ، ليأنسوا إليه ، لقالوا :

لست ملَكاً ، وإنما أنت بشر ، فلانؤمن بك .

فيبقون في لَبْسهم ـ أي خلطهم ـ

(١) ٨ ـ الانعام . (٢) ٩ ـ الانعام .

ـ وقال تعالى : وماأرسلنا قبلك من المرسلين ، إلا إنهم ليأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ...(١)

فتلك سنة الله تعالى في رسله :

الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ...(٢)

ـ وقال تعالى يصف عناد الكافرين ومكابرتهم وشططهم .

وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أوائتنا بعذاب أليم .(٣)

قالوا ذلك على وجه العناد ، وإيهام الناس أنهم على بصيرة ، ثم حلّ بهم يوم بدر ماسألوا .

قالوا هذا ، ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك ، فاهدنا إليه ، واشرح صدورنا له .

ولكنه العناد الذي أدّى بهم إلى هلاك .

---

(١) ٢٠ ـ الفرقان . (٢) ٧٥ ـ الحج .
(٣) ٣٢ ـ الانفال .

التكذيب بالمعجزات

ومن شطط الكافر وعناده تكذيبه بالمعجزات ، ومن ذلك :

١ـ ناقة صالح عليه الصلاة والسلام :

لما دعاهم إلى الايمان بالله تعالى ، كذّبوه وأرادوا أن يظهروا عجزه ، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية ، يتبيّنون بها صدقه في دعوته .

فطلبوا منه أن يُخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ناقة تَمْخَض .

فأخذ عليهم صالح العهد والميثاق ، لئن أجابهم الله تعالى إلى سؤالهم : ليؤمنُنّ به وليتّبعُنّه .

فلما أعطوه عهدهم وميثاقهم ، دعا صالح ربه ، فتحركت الصخرة ، وانصدعت عن ناقة يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوه .

وقال لهم :

هذه ناقة الله لكم آية - أي معجزة دالة على صدقي -
فذروها تأكلْ في أرض الله ، ولاتمسّوها بسوءٍ
فيأخذكم عذاب أليم .(١)

فعقروا الناقة - أي قتلوها - وعَتَوْا عن أمر
ربهم وقالوا :

ياصالح ائتِنا بما تعِدنا إن كنت من المرسلين .

فأخذتْهم الرجفة - أي الزلزلة الشديدة - فأصبحوا
في دارهم جاثمين .

- أي باركين على الركب من الهول والفزع -

فتولى عنهم ، وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ،
ونصحت لكم ، ولكن لاتحبون الناصحين .(٢)

٢- إبراهيم عليه السلام والنار :

دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام قومه إلى الايمان

(١) ٧٣ - الاعراف ، (٢) ٧٧-٧٩ - الاعراف .

بالله تعالى ، فأبوا ، فكسر أصنامهم ، وأرادوا الانتقام منه بالقائه في النار .

فجمعوا له من الحطب ماضاق به المكان ، وأشعلوا النار فيه ، حتى أضطرم وتأجج ، ثم قيّدوه ورموا به في وسط النار المستعرة .

ولكنّ إبراهيم عليه السلام ، كان مفعم القلب بالايمان ، شديد الثقة بالله تعالى ، عظيم التوكل عليه ، فلم يتزعزع ، ولم يتزلزل .

قال الله تعالى في ذلك :

قالوا : حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

قلنا : يانار كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم .

وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الاخسرين .(١)

فلم تحرق النار منه إلا القيد الذى أوثقوه به ، ولما خبت النار ، وجدوه معافىً سليماً حراً طليقاً .

---

(١) ٦٨ــ٧٠ ــ الانبياء .

فلم يؤمن به إلا قليل .

٣ـ معجزة موسى عليه السلام :

لما دعا موسى وهارون عليهما السلام فرعونَ وقومه إلى الايمان بالله تعـــالى ، ورأى فرعون المعجزة في عصا موسى عليه السلام ، ظن ذلك سحراً ، فجمع له أساطين السحر ، في مشهد عظيم اجتمع له الناس .

قالوا : ياموسى ! إما أن تُلقي وإما أن نكون أول من ألقى .

قال : بل ألقوا ، فاذا حبالُهم وعِصِيُّهم يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى .

فأوجس في نفسه خيفةً موسى .

قلنا : لاتخف إنك أنت الأعلى .

وألقِ مافي يمينك تلقف ماصنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يُفلح الساحر حيث أتى .

فأُلقي السحرة سجداً قالوا : آمنا برب هارون وموسى .

قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى .

غلت مراجل الحقد في صدر فرعون ، لهذه المفاجأة العجيبة ، وبقي على عناده وكفره ، حتى كانت عاقبته الغرق والذلة والهوان .

٤ـ من معجزات عيسى عليه السلام :

ودعا عيسى عليه الصلاة والسلام قومه إلى الايمان بالله تعالى ، وأظهر الله تعالى على يديه معجزات باهرات .

قال الله تعالى فيه : ورسولاً إلى بني إسرائيل ، أني قد جئتكم بآية من ربكم :

أني أخلق لكم من الطين ، فأنفخ فيه ،فيكون طيراً باذن الله .

---

(١) ٦٥ـ٧١ ـ طه .

وأبرئ الأكمه - الذي يولد أعمى - والأبرص وأحيي الموتى باذن الله .

وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم .

إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين .(١)

لاشك أن هذه أمور ، لايستطيع أحد أن يعالجها ، ولايقدر بشر أن يأتي بها إلا بتأييد من الله ، ولكنهم مع قيام حجته ، ووضوح آيته ، تمادَوا في طغيانهم ، وثبتوا على ضلالهم ، وقال الذين كفروا منهم :

إنْ هذا إلاسحر مبين !

وماآمن معه إلا قليل .

٥- من معجزات نبينا محمد ﷺ :

ونبينا محمد ﷺ أكثر الرسل الكرام معجزات :

- وأجلّها على الاطلاق : القرآن الكريم ، الذي عجز

(١) ٤٩ - آل عمران .

العرب ـ وهم الفصحاء البلغاء ـ عن معارضته .

ولم يكن من المشركين إلا العناد والمكابرة .

ـ والاسراء : وهو سفره ﷺ ليلاً ، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس ، وعودته من ليلته .

ولم يكن من المشركين إلا العناد والمكابرة .

ـ وإنشاق القمر بدعـوته ﷺ ، حين طلب منه قومه ذلك :

فقد انشق فرقتين : نصفاً على أبي قبيس ، ونصفاً على قَيْقُعان .

وهما الجبلان المطلان على مكة .

فقال المشركون : سحركم ابن أبي كبشة .

ـ والاخبار بالمغيَّبات :

فقد أخبر ﷺ بمغيبات كثيرة ، ماضيةٍ وحاضرةٍ ومستقبلة ، وقد ظهر صدقه فيها .

ولم يكن من المشركين إلا العناد والمكابرة .

سخرية الكافر من المؤمن

ـ قال الله تعالى في نوح عليه السلام وقومه :

ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه .

قال : إن تسخروا منا ، فانا نسخر منكم كما تسخرون .

فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحلّ عليه عذاب مقيم .(١)

جعل قوم نوح عليه السلام ، يمرون به ويسخرون منه ويقولون :

هذا الذي يزعم أنه نبي صار نجارا .

ـ وقال تعالى : إن الذين أجرموا كانوا من الكفار

---

(١) ٣٨و٣٩ ـ هود .

يضحكون .

وإذا مرّوا بهم يتغامزون .

وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين .

وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون .

وما أُرسلوا عليهم حافظين .

فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون .

على الأرائك ينظرون .

هل ثُوِّب - أي هل جوزي - الكفار ما كانوا يفعلون .(١)

- وقال تعالى معزّياً نبينا ﷺ :

ولقد استُهزيء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون .(٢)

- وقال تعالى في المنافقين :

---

(١) ٢٩-٣٦ - المطففين .

(٢) ١٠ - الانعام .

الذين يلمزون ـ أي يعيبون ـ المطّوّعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جُهدَهم ، فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم (١) .

ـ وقال تعالى : زُيِّنَ للذين كفروا الحيـاة الدنيا ويسخرون من الذين آمنـوا ، والذين اتقوا فوقهم يوم القيـامة ... (٢)

فالـكافر يسخر من المؤمن ، وذلك لحمقه وجهله ، وهو الذي يستحق أن يُسخَر منه ، ولا تضر المؤمن سخريته شيئاً .

الكافر لا ينفعه عمل

والـكافر لاينفعه عمل صالح في الآخرة ، فاذا عملوا صالحاً في الدنيـا ، كاغاثة ملهوف ، وإعانة مريض ، أو تصدّقٍ على فقير . . . فان الله تعالى يعجّل له ثواب عمله هذا في الدنيا ، فيعطيه الغنى مثلاً ، أو يعافيه من بعض آلام الدنيا وهمومها ، ويمنحه الرفاه فيها ، فيتمتّع الـكافر

(١) ٧٩ ـ التوبة . (٢) ٢١٢ ـ البقرة .

بعمله في الدنيا ، وليس له في الآخرة من نصيب .

قال الله تعالى : أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً (١).

ـ أي لا ثواب لهم في الآخرة ـ

ولا حسنة لهم توزن في موازين القيامة .

ومن لا حسنة له فهو في النار .

وقد شبّه الله تعالى عمل الكافر بما يلي :

١ ـ شبّهه بالهَبَاء :

قال الله تعالى : وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباءً منثوراً (٢) .

والهباء : الشيء المنبثّ ـ أي المنتشر ـ الذي يُرى في ضوء الشمس .

٢ ـ وشبّه عمل الكافر بالرماد الذي لعبت به الريح :

فقال تعالى : مَثَلُ الذين كفروا بربهم ، أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لايقدرون مما

---

(١) ١٠٥ ـ الكهف . (٢) ٢٣ ـ الفرقان .

كسبوا على شيء ... (١) .

فالريح تذري الرماد وتضيعه ، فلا يبقى له أثر .

٣ ـ وشبّه الله تعالى عمل الكافر بالحجر الأملس الذي عليه تراب ، فغسله المطر الشديد ، فلم يُبق منه أثرا .

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا ، لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ، كالذي ينفق ماله رئاءَ الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب أصابه وابلٌ فتركه صلدا ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين (٢) .

٤ ـ وشبّه الله تعالى عمل الكافر بالسراب :

قال تعالى : والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه ، والله سريع الحساب (٣) .

والسراب : ما يُرى في النهار من شدة الحر ،

---

(١) ١٨ ـ إبراهيم .
(٢) ٢٦٤ ـ البقرة .
(٣) ٣٩ ـ النور .

كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض .

فعمل الكافر في الآخرة كالسراب ، فاذا عوّل الكافرون على ثواب أعمالهم ، قدموا على الله تعـالى ، فوجدوا ثواب أعمالهم مُحبَطةً بالكفر ، فلا يجدون من ذلك ثواباً ، كما لا يجد صاحب السراب ماء .

٥ - وشبَّه عمله بالظلمات :

قال تعالى : أو كظلمات في بحر لُجّيّ - أي لا يُدرك قعره - ، يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلماتٌ بعضهـا فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور [١].

والمراد بالظلمات المذكورة في الآية الكريمة : ظلمـة السحاب ، وظلمة الموج ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر .

فمن كان في هذه الظلمات لا يبصر شيئاً .

- وقال تعالى في المنافقين : وما منعهم أن تُقبَل منهم نفقاتُهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ... [٢]

---

(١) ٤٠ - النور . (٢) ٥٤ - التوبة .

ـ وقال تعالى : ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين (١) .

أولئك لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم ...(٢) .

إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ، وشاقّوا الرسول ـ أي عادَوه وخالفوه ـ من بعد ماتبين لهم الهدى، لن يضروا الله شيئاً ، وسيحبط أعمالهم (٣) .

ـ وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

يا رسول الله ! ابنُ جُدْعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟

قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً :

« رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » (٤) .

فما كان يفعله ابن جُدْعان في الجاهلية من الصلة والاطعام ووجوه المكارم ، لا ينفعه في الآخرة ، لكونه كان كافراً .

---

(١) ٥ ـ المائدة . (٢) ١٩ ـ الأحزاب .
(٣) ٣٢ ـ محمد «ص» . (٤) مسلم .

وهو معنى قوله ﷺ : لم يقل يوماً :
« ربِ اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

وفي الحديث الشريف : إن الله لايظلم مؤمناً حسنة، يُعطَى بها في الدنيا ، ويُجزَى بها في الآخرة .

وأما الكافر ، فيُطعَم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنةٌ يُجزَى بها (١) .

ـ وأتى النبيَّ ﷺ رجلٌ مقنَّع بالحديد ـ أي مغطىً بالسلاح ـ فقال :

يا رسول الله ! أقاتل أو أُسلم ؟

فقال : أسلم ثم قاتل .

فأسلم ثم قاتل ، فقُتل .

فقال رسول الله ﷺ : عمل قليلاً وأُجر كثيراً (٢).

فلم يأذن له رسول الله ﷺ بالخروج إلى الجهاد معه ، لأنه لا يستعين بمشرك ، ولأنه لا ثواب له على جهاده وهو كافر .

---

(١) مسلم .
(٢) البخاري ومسلم .

لا تنفع الكافر عظة

قال الله تعالى : إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .

ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ... (١)

وصف الله تعالى قلوب الكافرين بعشرة أوصاف :

بالختم ، والطبع ، والضيق ، والمرض ، والرَّيْن ، والموت ، والقسوة ، والانصراف ، والحمية ، والانكار :

ـ فقال في الانكار :

قلوبهم مُنكِرة وهم مستكبرون (٢) .

ـ وقال في الحمية :

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميةَ حمية الجاهلية...(٣)

ـ وقال في الانصراف :

---

(١) ٦و٧ ـ البقرة . (٢) ٢٥ ـ النحل .
(٣) ٢٦ ـ الفتح .

ثم انصرفوا ، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون(١).

ـ وقال في القسوة :

ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ... (٢) .

فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ... (٣)

ـ وقال في الموت :

أو مَن كان مَيتاً فأحييناه ... (٤)

إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله(٥)..

ـ وقال في الرَّين :

كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (٦) .

ـ وقال في المرض :

في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ... (٧)

---

(١) ١٠٧ ـ التوبة .
(٢) ٧٤ ـ البقرة .
(٣) ٢٢ ـ الزمر .
(٤) ١٢٢ ـ الانعام .
(٥) ٣٦ ـ الانعام .
(٦) ١٤ ـ المطففين .
(٧) ١٠ ـ البقرة .

ـ وقال في الضيق :

ومن يُرِدْ أن يُضلَّه يجعلْ صدره ضيقاً حَرَجاً ... (١)

ـ وقال في الطبع :

فطُبِع على قلوبهم فهم لا يفقهون .(٢)

بل طبع الله عليها بكفرهم ... (٣)

ـ وقال في الختم :

ختم الله على قلوبهم ...(٤)

والختم على القلوب : عدم وعيهم عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته ، والفكر في آياته .

والختم على السمع : عـــدم فهمهم للقرآن إذا تُلي عليهم ، أو دُعوا إلى وحدانيته .

والغشاوة على الأبصار : عـــدم هدايتها للنظر في مخلوقاته ، وعجائب مصنوعاته .

---

(١) ١١ ـ الانعام .
(٢) ٣ ـ المنافقون .
(٣) ١٥٥ ـ النساء .
(٤) ٧ ـ البقرة .

ـ وقال تعالى في ذم الكافرين :

أولئك الذين طبع على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم .(١)

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ (٢)

ـ وقال تعالى في معرض الذم :

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة . فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكّرون ؟ (٣)

ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الانس والجن :

لهم قلوبٌ لايفقهون بها .

ولهم أعينٌ لايبصرون بها .

ولهم آذانٌ لايسمعون بها .

أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون .(٤)

(١) ١٦ ـ محمد (ص) .
(٢) ٢٤ ـ محمد «ص» .
(٣) ٢٣ ـ الجاثية .
(٤) ١٧٩ ـ الاعراف .

الكافر في غرور

ـ قال الله تعالى : إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك هم وقود النار .(١)

ـ لا يَغُرَّنَّك تقلّبُ الذين كفروا في البلاد .

متاعٌ قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد .(٢)

والمتاع : مايعجّل الانتفاع به .

وسماه قليلاً لأنه فانٍ ، وكل فانٍ قليل وإن كثر .

قال تعالى : قل : متاع الدنيا قليل ...(٣)

ـ وفي الحديث الشريف : ما الدنيا في الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه في اليم ـ يعني البحر ـ فلينظر بمَ يرجع ؟ (٤)

أي يرجع بشيء حقير .

(١) ١٠ ـ آل عمران . (٢) ١٩٦و١٩٧ ـ آل عمران .
(٣) ٧٧ ـ النساء . (٤) الترمذي .

ـ وقال تعالى : إنِ الـكافرون إلا في غرور .(١)

وقال عز وجل : لولا أن يكون الناس أمة واحدة ـ أي في الكفر ـ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ، لبيوتهم سُقُفاً من فضة ، ومعارج ـ أي مصاعد ـ عليها يظهرون .

ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكئون .

وزخرفا ، وإن كل ذلك لمّا ـ أي إلاّ ـ متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين .(٢)

أي لو فعل الله ذلك لـكان فتنه للمؤمنين ، إذ قد يُغريهم ذلك بالكفر ، فيكفرون ليتمتعوا بما يتمتع به الـكافرون .

قال الحسن رضي الله عنه : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها ، ومافعل الله تعالى ذلك ، فكيف لوفعل ؟

ـ وقال تعالى : أفرأيت أن متّعناهم سنين .

---

(١) ٢١ ـ الملك .
(٢) ٣٤و٣٥ ـ الزخرف .

ثم جاءهم ما كانوا يوعدون .

ماأغنى عنهم ما كانوا يمتّعون .(١) ؟!

ـ وقد وصف الله تعالى مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوبّخ فيه المؤمنون الكافرين ، يقول المؤمنون المنافقين :

ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم وارتبتم ، وغرتكم الأمانيّ حتى جاء أمر الله ، وغرّكم بالله الغرور ـ وهو الشيطان ـ .(٢)

ـ وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ :

وذَرِ الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وغرتهم الحياة الدنيا ...(٣)

وفي ذلك تهديد لهم ووعيد .

ـ وفي الحديث الشريف : يؤتىَ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيُصبَغ في النار صَبغة ـ أي

(١) ٢٠٥ـ٢٠٧ ـ الشعراء .   (٢) ١٤ ـ الحديد .
(٣) ٧٠ ـ الانعام .

يُغمَس فيها غمسة ـ ثم يقال :

يابن آدم ! هل رأيت خيراً قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟

فيقول : لا والله يارب !

ويؤتى بأشد الناس بؤساً ـ أي شدة ـ في الدنيا من أهل الجنة ، فيُصبَغ صبغة في الجنة ، فيقال له :

يابن آدم ! هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرّ بك شدة قط ؟

فيقول : لا والله ، مامرّ بي بؤس قط ، ولارأيت شدة قط.(١)

وقال بعضهم :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسنٍ ... إذن لم يكن فيها معاشٌ لظالمِ
لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً ... وقد شبعت فيها بطون البهائمِ

---

(١) مسلم .

استدراج الكافر

الاستدراج : هو ترك المعاجلة ، والأخذ بالتدريج .

قال الله تعالى : فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأُملي لهم ـ أي أمهلهم ـ إن كيدي متين .(١)

وقال تعالى : فلما نسوا ماذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فاذا هم مبلسون .(٢)

أي باهتون حزينون آيسون من الخير ، لايُحيرون جواباً لشدة مانزل بهم من سوء الحال .

ومن الاستدراج بالكافرين في هذه العصور ، مافتح الله تعالى به عليهم من العلوم الدنيوية والمخترعات ، ومن ذلك :

وصولهم إلى القمر ، ومحاولتهم الوصول إلى كواكب أخرى .

---

(١) ٤٤و٤٥ ـ القلم . (٢) ٤٤ ـ الانعام .

فقـــد شغلهم ذلك عن الله تعالى والايمان به ، وداخلهم الغرور بأنفسهم ، حتى ظنوا أنهم قادرون على كل شيء ، وانجرّ في ذيل غرورهم بعض ضعفاء الايمان من المسلمين .

رأى أحد المسلمين آخر على منكر ، فأمره ونهاه .

فقال الآخر ساخراً منه : لا تزالون واقفين عند قولكم ، هذا حلال وهذا حرام ، والناس قـــد وصلوا إلى القمر !

فأجابه الأول : إنهم ماوصلوا إلى القمر بكفرهم وفسقهم وفجورهم ، إنما وصلوا إليه ببحثهم وعلومهم .

فبُهت الآخر وسكت !

ولا يفوتنا هنا أن نقول :

إن هذه العلوم الكونية هي من الفروض التي قصّر فيها المسلمون ، لأن الله تعالى يقول :

وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ... (١)

---

(١) ٦٠ ـ الانفال .

وهذه العلوم هي من القوة ولاشك ، ولايتسنّى المسلمين أن يُرهبوا أعداءهم ، إلا إذا نافسوهم في هذه العلوم وسابقوهم .

وسبيل ذلك العلم الصحيح والتشجيع عليه ، مع قيامه على أساس من الايمان واليقين وتقوى الله عزو جل .

ومما يدلّ دلالة واضحة عجيبة ، أن ماوصل إليه الكافر من هذه العلوم استدراج ، كفره بالله تعالى ، وعماه عن الايمان ، والدين الصحيح .

تغرير الكافر بالمؤمن

يسوء الكافرَ - وقد ضلّ عن الايمان - أن يهتدي إليه غيره ، فهو يعمل على صدّه عن الحق ، ويغريه بالكفر ، ويشجّعه عليه .

قال الله تعالى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا :

« اتّبعوا سبيلنا ولْنحملْ خطاياكم » .

وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء ، إنهم

الكاذبون .(١)

ومن تغرير الكافر بالمؤمن ، تزيين الكفر له ، وإضلاله عن الايمان بأيّ وسيلة كانت ، كاغراء بوظيفة أومال ، أومنفعة دنيوية ، أو مصلحة شخصية ، أو تفريج كرب ، أوتلبية رغبة ...

والمؤمن الحق يرى الدنيا بعينه حقيرةً ، ولو وضعوا الشمس في يمينه ، والقمر في يساره ، على أن يكفر بالله ، أويخرج عن دين الله ، ما أطاعهم في شيء من ذلك ، ولو أدّى به ذلك إلى هلاك .

الكافر مغلوب منهزم

ـ قال الله تعالى في داود ومن معه من المؤمنين في قتال عدوهم من الكافرين :

فهزموهم باذن الله ، وقتل داود جالوت ...(٢)

ـ وقال تعالى في فرعون وجنوده :

---

(١) ١٢ ـ العنكبوت . (٢) ٢٥١ ـ البقرة .

ولقد جاء آلَ فرعون النُذُر .

كذّبوا بآياتنا كلها ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر .

أكفاركم خيرٌ من أولئكم ؟

ـ أي هل كفار قريش خير ممن سبقهم من الكافرين ، فلا يصيبهم ما أصابهم ـ ؟

أم لكم براءة في الزُبُر ؟

ـ أي أم لكم وعدٌ من الله في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة ـ ؟

أم يقولون : نحن جميعٌ منتصر ؟

ثم بشّرهم الله بالهزيمة ، فقال :

سيُهزَم الجمع ويولّون الدبر .(١)

ـ وقال تعالى : إذ يوحي ربك إلى الملائكة : أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا ـ أي بشروهم بالنصر ـ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق ،

(١) ٤١ـ٤٥ ـ القمر .

واضربوا منهم كل بنان (١)

ـ وقال تعالى : وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين .(٢)

ولن يجعل الله للـكافرين على المؤمنين سبيلا .(٣)

قل للذين كفروا ستُغلَبون وتُحشـرون إلى جهنم ، وبئس المهاد .

قد كان لـكم آية في فئتين التقتا : فئـةٌ تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافـرة ، يرونهم مثلَيهِم رأي العين. والله يؤيّد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .(٤)

ـ وقال تعالى : إلاّ تنصروه ـ يعني الرسول ﷺ ـ فقد نصره الله إذ أخرجـه الذين كفروا ثانيَ اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه :

« لاتحزن إن الله معنا » .

فأنزَل الله سكينته عليه وأيدّه بجنود لم تروها ،

(١) ١٢ ـ الانفال .
(٢) ٤٧ ـ الروم .
(٣) ١٤١ ـ النساء .
(٤) ١٢و١٣ ـ آل عمران .

وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ الله هي العليـا ، والله عزيز حكيم .(١)

كادت قريش للنبي ﷺ كيـداً شديداً ، وصممت العزم على قتله ، واجتمع شبـاب منهم أشداء أقوياء ، على باب النبي ﷺ يرقبون خروجه ، ليضربوه بالسيوف ضربة رجل واحد .

فخرج عليه الصلاة والسلام ، وهو يقرأ :

« وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ، فأغشيناهم فهم لايبصرون ».(٢)

فألقى الله تعالى النوم عليهم ، حتى لم يره أحد .

وذهب والصدّيق أبو بكـر رضي الله عنـه فى صحبته ، حتى دخلا غار ثور .

ولمـا أخفقت قريش في مكيدتها هاج هائجهـا ، وجعلت الجوائز المغرية لمن يأتي به ، أو يدل عليه .

---

(١) ٤٠ ــ التوبة .   (٢) ٩ ــ يس .

وقد وصلوا في طلبهم إياه إلى ذلك الغار .

وأرسل الله تعالى حمامة فباضت على فم الغار ، وعنكبوتاً فنسجت عليه ، فاستبعد الباحثون عنه أن يكون في الغار أحد .

وقال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله لونظروا مواقع أقدامهم لرأونا .

فقال له الرسول ﷺ :

« لاتحزن إن الله معنا ».

« ماظنك ياأبا بكر باثنين الله ثالثهما » .

ورحم الله الأبو صيري إذ قال :

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

ولعل من حكمة الله البالغة في تسخير الحمام والعنكبوت ـ وهما من أضعف المخلوقات ـ في رد المشركين عن الغار ، أن ذلك أشد نكالاً بالعدو ، وأشد

إذلالاً له ، والله عزيز حكيم !

وقد ضرب الله تعالى المثل بضعف العنكبوت ووهن بيتها ، فقال :

وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .(١)

الغلظة على الكافرين

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالغلظة على الكافرين ، فقال :

ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ..(٢)

وأمر بذلك المؤمنين أيضاً فقال :

ياأيها الذين آمنوا ، قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ...(٣)

---

(١) ٤١ ـ العنكبوت . (٢) ٧٣ ـ التوبة .

(٣) ١٢٣ ـ التوبة .

والغلظة : ضدّ الرأفة .

فينبغي المؤمن أن يكون غليظاً على الكافرين ، شديداً عليهم ، وأن تكون رحمته ورأفته خاصة بالمؤمنين :

قال الله تعالى : محمد رسول الله والذين معه أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم ...(١)

اعلان البراءة من الكافرين

إذا صدق المؤمن في إيمانه ، وأحبّ ربه عز وجل والى من يواليه ، وعادى من يعاديه ، ومن معاداة الكافر إعلان البراءة منه .

ـ قال الله تعالى : وإن كذّبوك فقل : لي عملي ولكم عملكم ، وأنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون(٢)

أي لايؤاخَذ أحد بذنب الآخر .

وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

ـ وقال تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين .

---

(١) ٢٩ ـ الفتح . (٢) ٤١ ـ يونس .

واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين .

فان عَصوْكَ فقل : إني بريء مما تعملون .(١)

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتبرّأ ممن خالف أمره ، لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، لايأمر إلا بما يرضاه ، ومن تبرأ منه ، تبرأ الله منه .

وقال تعالى في خطاب المؤمنين :

قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم :

إنا بُرَآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ...(٢)

ـ وقال تعالى : قل : يا أيها الكافرون ، لا أعبد ماتعبدون ، ولاأنتم عابدون ما أعبد ، ولاأنا عابد ماعبدتم ،

---

(١) ٢١٤ـ٢١٦ ـ الشعراء . (٢) ٤ ـ الممتحنة .

ولاأنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين .(١)

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن سبب نزول هذه السورة ، أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، لقوا رسول الله ﷺ ، فقالوا :

يامحمد ! هلُمَّ فلنعبدْ ماتعبد ، وتعبدْ مانعبد ، ونشتركْ نحن وأنت في أمرنا كله ، فان كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا شاركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك ، كنتَ قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت بحظك منه .

فأنزل الله عز وجل : قل : ياأيها الكافرون ...(٢)

وفي الحديث الشريف : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني .

قال : اقرأ عند منامك : « قل : ياأيها الكافرون » فانها براءة من الشرك .(٣)

(١) سورة الكافرون . (٢) ابن اسحق .
(٣) أبو بكر الانباري وغيره .

وقال : ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في القرآن أشدُّ غيظاً لابليس من هذه السورة ، لأنها توحيد وبراءة من الشرك .

- فعلى المؤمن الحق ، أن يعلن براءته من كل مايخالف الاسلام اعتقاداً كان أوعملاً .

عن أبي بُرْدَة قال : وَجِع أبو موسى الاشعري ، فغُشي عليه ، ورأسه في حجر إمرأة من أهله ، فأقبلتْ تصيح برنَّة - أي صيحة - فلم يستطيع أن يردَّ عليها شيئاً .

فلما أفاق ، قال : أنا بريء مما بريء منه رسول الله ﷺ .

إن رسول الله ﷺ ، بَرِيء من الصالقة والحالقة والشاقّة .(١)

والصالقة : التي ترفع صوتها بالنياحة والندب .

والحالقة : التي تحلق رأسها عند المصيبة .

---

(١) البخاري ومسلم .

والشاقة : التي تشق ثوبها .

الكافر لا يُطاع

والكافر لا يُطاع ، لأن طاعته تجرّ إلى غفلة أو معصية أو كفر .

ـ قال الله تعالى في فرعون وقومه :

فاستخفّ قومه فأطاعوه ...(١)

ـ وقد نهى الله نبيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال :

يا أيها النبي اتقِ الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليماً حكيما .(٢)

واتّبعْ مايوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيراً .

وتوكّلْ على الله ، وكفى بالله وكيلا .(٣)

---

(١) البخاري ومسلم . (٢) ٥٤ ـ الزخرف .
(٣) ١ـ٣ ـ الاحزاب .

نزلت في أبي سفيان ومن معه ، وقد نزلوا المدينة على عبد الله بن أبيّ بن سلول ، رأس المنافقين بعد أحد . وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم بعض المنافقين ، فقالوا للنبي ﷺ - وعنده عمر ابن الخطاب - :

ارفضْ ذكر آلهتنا اللاتِ والعُزّى ومناة ، وقل: إن لها شفاعة ومَنَعة لمن عبدها ، ونَدعَك وربَّك .

فشقّ على النبي ﷺ ما قالوا .

فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي في قتلهم .

فقال النبي ﷺ : إني قد أعطيتهم الأمان .

فقال عمر : اخرجوا في لعنة الله وغضبه .

فأمر النبي ﷺ أن يُخرَجوا من المدينة فنزلت الآية :

- وقال تعالى : فلا تطعِ المكذبين ، ودّوا لو تُدهِن فيُدهنون(١) .

---

(١) ٨ و ٩ - ن .

أي تمنّوا أن تلين معهم ، وتصانعهم ، فيَلينوا معك ويصانعوك ويداهنوك . وهذا لايكون إلا من أهل الباطل ، أما أهل الحق فلا يداهنون ولايصانعون ، بل يدورون مع الحق حيث دار .

ـ وقال تعالى : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيرا .

وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً .

ولا تُطع الكافرين والمنافقين ودعْ أذاهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا .(١)

نهى الله تعالى نبيه ﷺ أن يطيع الكافرين والمنافقين فيما يشيرون عليه ـ من المداهنة في الدين ، والمالأة على الكفر .

ـ وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ :

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي

(١) ٤٥ ـ ٤٨ ـ الاحزاب .

يريدون وجهه ، ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطا .(١)

تكبّر بعض المشركين عن مجالسة النبي ﷺ مع فقراء المسلمين ، وقالوا :

اجعل لنا يوماً ولهم يوماً .

فهمّ النبي ﷺ أن يوافقهم حرصاً على أن يؤمنوا .

فنهاه الله تعالى عن ذلك في هذه الآية الكريمة ، ثم أمره فقال :

وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . . .(٢)

ـ وقال تعالى يحذّر المؤمنين عامة من طاعة الكافرين :

يا أيها الذين آمنوا ، إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ، يردّوكم بعد إيمانكم كافرين .(٣)

(١) ٢٨ ـ الكهف (٢) ٢٩ ـ الكهف .
(٣) ١٠٠ ـ آل عمران .

فليحذر المؤمنون في كل عصر ، من طاعة الملاحدة والـكافرين في أمر ، فالمـؤمن العاقـــل ينبغي أن يـكون على حذر .

النهي عن القعود مع الكافرين

قال الله تعالى : وقد نزّل عليكم في الكتـاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يُكفَر بها ويُستَهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنـكم إذن مثلهم...[1]

دلّ هذا على وجوب اجتناب أهل الكفر وأهـل المعاصي ، إذا ظهر منهم منكر ، لأن من لم يجتنبهم فقـــد رضي فعلهم ، والرضا عن الكفر كفر ، والرضا بالمعصـية معصية .

قال تعالى : إنـكم إذن مثلهم .

فـكل من جلس في مجلس معصية ، ولم ينـكر عليهم ، يكون معهم في الوزر سواء .

---

(١) ١٤٠ ـ النساء .

وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية ، أو عملوا بها .

فان لم يقدر على النكير عليهم ، فينبغي أن يقوم عنهم ، حتى لايكون من أهل هذه الآية .

ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة المعاصي حتى يهلكوا جميعاً .

وفي الحديث الشريف : إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل ـ أي على المنكر ـ فيقول :

ياهذا : اتقِ الله ودع ماتصنع ، فانه لايحل لك .

ثم يلقاه من الغد ، وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده .

فلما فعلوا ذلك ، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم لعنهم على لسان أنبيائهم ... (١)

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، أنه قال :

---

(١) أبو داود والترمذي .

يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية :

يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لايضركم من ضلّ إذا اهتديتم ... (١)

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ـ أي لم يمنعوه ـ أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه(٢) .

وإذا وجب تجنّب أصحاب المعاصي ، فان تجنب أهل البدع والأهواء أولى ، لأن أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، تجرّ إلى الكفر البَواح .

إذا عرفنا هذا ، عرفنا مدى الخطأ والخطر ، الذي يتعرّض له بعض المسلمين من مجالستهم أهل الكفر ، ومشاركتهم إياهم في الطعن بالدين ، والخوض فيما حرم الله تعالى .

النهي عن موالاة الكافرين

الموالاة : هي المحبة والمتابعة .

---

(١) ٨٥ ـ النساء . (٢) أبو داود والترمذي .

ولا تكون إلا بين المتجانسين ، فلا يوالي المؤمن كافراً بحال .

قال الله تعالى: والذين كفروا بعضهم أولياء بعض...(١)

وقال عز وجل : لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ... (٢)

ياأيها الذين آمنوا ، لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، تُلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق...(٣)

ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فانه منهم ، إن الله لايهدي القوم الظالمين(٤) .

جاء في سبب نزول هــــذه الآية ، أن يهود بني قَيْنُقاع ، لما حاربوا رسول الله ﷺ ، ، تشبّث بأمرهم عبد الله بن أبيّ المنافق ، وقام دونهم ، وتمسّك بموالاتهم ، ومشى عُبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان

---

(١) ٧٣ ـ الانفال . (٢) ٢٨ ـ آل عمران .
(٣) ١ ـ الممتحنة . (٤) ٥١ ـ المائدة .

أحد بني عوف بن الخزرج ، له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبيّ .

فجعلهم عبادة رضي الله عنه إلى رسول الله ، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وقال :

يارسول الله أبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وأتولّى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم .

ففي عبادة وابن أبيّ نزلت هذه الآيات :

ياأيها الذين آمنوا ، لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض . . .

إلى قوله تعالى : ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا ، فان حزب الله هم الغالبون (١) .

وقال تعالى : لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . . . (٢)

---

(١) ٥٦ ــ المائدة .
(٢) ٢٢ ــ المجادلة .

والمحادّة : وقوع هـذا في حد وذاك في حـد . كالمُشاقّة .

يقال : حادّ فلان فلانا : أي صار في حد غير حده.

موعظة :

كان بعض السلف لايقبل هدية من كافر أوفاسق، حذراً من أن تكون سبباً لمحبته .

ففي الحديث الشريف : تهادَوْا تحابوا .

جُبلتِ القلوب على حب من أحسن إليها .

فينبغي أن لايكون في قلب المؤمن مودة أو موالاة لـكافر أوفاسق .

عداوة الكافر للمؤمن

الـكافر عـــدّو للمـؤمن لدود ، مهما ادّعى محبة وزعم وَلاءً .

وقد سمّى الله تعالى الكافرين أعداء ، فقال على لسان موسى عليه السلام ، يخاطب بني إسرائيل :

قال : عسى الله أن يُهلك عدوكم ، ويستخلفكم في الأرض ..(١)

وقال عز وجل : يابني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ...(٢)

وقال سبحانه : وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم .(٣)

ياأيها الذين آمنوا ، لاتتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء ...(٤)

والله أعلم بأعدائكم ...(٥)

لتجدَنّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود...(٦)

وقد أعلن الله تعالى للمؤمنين عداوة الكافرين عامة ، فقال :

---

(١) ١٢٩ ـ الاعراف . (٢) ٨٠ ـ طه .
(٣) ٦٠ ـ الانفال . (٤) ١ ـ الممتحنة .
(٥) ٤٥ ـ النساء . (٦) ٨٢ ـ المائدة .

إن الـكافرين كانوا لـكم عدواً مبيناً .(١)

والعدو لا يُحبّ ولايوالىَ بحال ، والانسـان مفطور على كراهيته وعداوته .

مَثَل الكافر

ضرب الله تعـالى للـكافر أمثالاً ، تشير إلى غباوته وحقارته :

ـ قال الله تعالى : وَمَثَل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بمـا لايسمع إلا دعاءً ونداء ، صمٌّ بـكمٌ عميٌ فهم لايعقلون .(٢)

شبّههم بالدوابّ السارحـة التي لاتفقه مايقال لها ، بل إذا نعَقَ بها راعيها ـ أي دعاها إلى مايرشـدها ـ لاتفقه مايقول ولاتفهمه ، بل إنما تسمع صوته فقط .

ـ وقال تعالى : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتْبعه الشيطان ـ أي لحق به ـ فكان من الغاوين .

(١) ١٠١ ـ النساء . (٢) ١٧١ ـ البقرة .

ولو شئنا لرفعناه بهـا ، ولكنه أخلد إلى الارض ـ أي مال إلى زينة الدنيا ـ ، واتبع هواه ، فمثَلَه كمثَل الكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركْه يلهث ، ذلك مثَل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .

ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسَهم كانوا يظلمون (١) .

كان هذا الذي ضرب الله تعالى مثَله في هذه الآيات ، من علماء بني إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدّمونه في الشدائد ، بعثه نبي الله موسى عليه السلام ، وإلى ملك « مَدْين » يدعوه إلى الله . فأقطعه وأعطاه ، فتبع دينه ، وترك دين موسى عليه السلام .

وقالت ثقيف : هو أمية بن أبي الصَّلْت الثقفي .

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت .

---

(١) ١٧٦ ـ ١٧٨ ـ الاعراف .

وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت ، يشبه عالم بني إسرائيل الذي تقدّم ذكره . فانه كان قد اتصل إليه علم كثير ، من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه . فانه أدرك زمان رسول الله ﷺ ، وبلغتْه أعلامه وآياته ومعجزاته ، وظهرت لكل من له بصيرة ، ومع هذا اجتمع به ، ولم يتبعه ، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم . ورثى أهـــل بدر من المشركين بمرثاة بليغة .

وقد جاء في الحديث : أنه ممن آمن لسانه ، ولم يؤمن قلبه .

فان له أشعاراً ربانية ، وحكماً وفصاحة ، ولكنه لم يشرح الله صدره للاسلام .

وشبّهه بالكلب فقال : « إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

أي صار مثله في ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعوة إلى الايمان ، وعدم الدعوة ، كالكلب في لهْثه في حالتيه، إن حملت عليه، وإن تركته، فهو يلهث فى الحالين.

قال بعض العلماء : كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب ، فانه يلهث في حال التعب وحال الراحة ، وحال المرض وحال الصحة ، وحال الريّ وحال العطش . فضربه الله تعالى مثلاً لمن كفر بالله وكذب بآياته ، فقال :

« إن وعظته ضلّ ، وإن تركته ضلّ » .

فهو كالكلب إن تركته لهث ، وإن طردته لهث .

ـ وقال تعالى في اليهود : مثَل الذين حُمّلوا التوراة ـ أي كُلّفوا العمل بها ـ ثم لم يحملوها ـ أي لم يعملوا بها ـ كمثل الحمار يحمل أسفاراً (١) ـ أي كتبا ـ

قال بعض المفسرين : الحمار لا يدري أسِفْر على ظهره أم زبل ؟

فهكذا اليهود ، لم ينتفعوا بالتوراة ، كما لا ينتفع الحمار بما يحمل على ظهره من الكتب .

---

(١) ٥ ـ الجمعة .

الكافر شرّ الدواب

ـ قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولَّوا عنه وأنتم تسمعون .

ولا تكونوا كالذين قالوا : « سمعنا » وهم لا يسمعون.

إن شر الدواب عند الله الصم البُكم الذين لا يعقلون (١).

والدوابّ : جمع دابة . والدابة تجمع الحيوان كله ، لأن كل ما يدب على وجـــه الأرض فهو دابة ، فشمل الانسان والحيوان .

وهؤلاء شر الدواب ، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهولاء خُلقوا للايمان والعبادة ، فكفروا .

ـ وقد وصف الله تعالى الكافرين بالأنعام أيضاً فقال :

إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً (٢) .

وإنما كان الكافرون كالأنعام ، لأن الله تعالى

---

(١) ٢٠ ـ ٢٢ ـ الانفال . (٢) ٤٤ ـ الفرقان .

منحهم السمع والأبصار والعقول ، وشرع لهم الشرائع ، وبيّن لهم طريق الخير والشر ، ولفّتهم إلى مظاهر قـــدرته وعظمته ، فلم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وعقولهم ، فكانوا شراً من الأنعام ، لأن الأنعام لم تُعط العقل ، ولم تُشرَع لها شرائع .

الله تعالى يمهل الكافر

والله تعالى يمهل الكافر ، ولا يعاجله بالعقوبة ، لعله يهتدي إلى الايمان ، فينجوَ من العذاب ، وإذا لم يهتدِ إلى الايمان أعذر الله إليه ، واشتدت نقمته عليه :

قال الله تعالى :

ولقد استُهزئ برسلٍ من قبلك ، فأمليتُ للذين كفروا ـ أي أمهلتهم ـ ، ثم أخـــذتهم ، فكيف كان عقاب (١) .

فأمليتُ للكافرين ثم أخذتهم ، فكيف كان نكير (٢) ؟

---

(١) ٣٢ ـ الرعد . (٢) ٤٤ ـ الحج .

وكأيّنْ من قريةأمليت لها وهي ظالمة ، ثم أخذتها ..!(١)

ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملي لهمخير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذابٌ مهين (٢) .

فمهّلِ الكافرين أمهِلْهم رويدا (٣) .

أي أنظِرهم ، ولا تستعجل لهم ، وسترى ماذا أُحِلّ بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك .

وذرني والمكذبين أولي النّعمة ومَهّلْهم قليلا (٤) .

ـ وفي الحديث الشريف : إن الله ليملي للظالم ـ أي يمهله ـ فاذا أخذه لم يُفلته .

ثم قرأ : وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخْذَه أليم شديد (٥) .

وقال تعالى : ولو يعجّل الله للناس الشر استعجالهم

---

(١) ٤٨ ـ الحج . (٢) ١٧٨ ـ آل عمران .
(٣) ٧ ـ الطارق . (٤) ١١ ـ المزمل .
(٥) ١٠٢ ـ هود . والحديث رواه مسلم والبخاري .

بالخير ، لقُضيَ إليهم أجلهم . . . (١)

ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها ـ أي على الأرض ـ من دابة ، ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى ... (٢)

فلا تعجلْ عليهم ، إنما نَعُدّ لهم عدّاً (٣) .

فاصبِرْ كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجلْ لهم . . . (٤)

ـ وقال تعالى يهدّد الكافرين بتعجيل العقوبة :

وإذا مسّكم الضُرّ في البحر ـ أي خوف الغرق ـ ضلّ ـ أي فُقِد ـ من تدعون إلا إياه .

فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفورا .

أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ـ أي ريحاً شديدة ترمي بالحصباء وهي الحصا الصغار ـ ثم لاتجدوا لكم وكيلا . ـ أي حافظاً ونصيرا ـ

---

(١) ١١ ـ يونس .
(٢) ٦١ ـ النحل .
(٣) ٨٤ ـ مريم .
(٤) ٣٥ ـ الاحقاف .

أم أمنتم أن يعيدكم فيه مرةً أخرى ، فيرسلَ عليكم قاصفاً من الريح ، فيُغرقكم بما كفرتم ، ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا ـ أي من يتبعنا بطلب الثأر لكم ـ .

هدّدهم الله تعالى في ذلك بتعجيل العقوبة لهم في الدنيا ، قبل الآخرة .

ـ وقال تعالى في تعجيل العقوبة للكافر في الدنيا :

كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، كذّبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب (١) .

ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعةٌ ـ أي داهية ـ أو تحُلّ قريباً من دارهم ، حتى يأتي وعد الله ، إن الله لايخلف الميعاد (٢) .

وهذا كله في الكافر .

أما المؤمن العاصي ، فقد يمهله الله تعالى ليتوب ، وقد يعجّل عقوبته في الدنيا ، بآلام وأسقام ، وكروب

---

(١) ١١ ـ آل عمران . (٢) ٣١ ـ الرعد .

وخطوب، وهموم وغموم ... إن لم يعفُ عنه بفضله .

ففي الحديث الشريف : إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها .(١)

مايصيب المسلم من نَصَب - أي تعب - ولاوصَبٍ - أي مرض - ولاهمٌ ولاحَزَن ، ولاأذىً ولاغمٌ ، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه .(٢)

وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها إذا أصابها صُداع ، أخذتْ رأسها بيدها ، وقالت :

« بذنبي ، ومايعفو أكثر » .

ونظر رجل من السلف إلى إمرأة ، ثم مشى ، فأصابه جدارٌ ، فشُجَّ رأسه ، فقال :

« ذنبٌ عجّلتْ عقوبته » .

وحدثني بعض أهل الفضل ، أنه كان في الطواف

---

(١) مسلم . (٢) البخاري ومسلم .

حول الكعبة مرة ، فوقع نظره على امرأة ، فسُرقتْ منه ساعته ، وكانت ذات قيمة .

قال : فعرفت أن ذلك بذنبي .

ـ وأما العفو والمغفرة ، فقد قال تعالى :

إن الله لايغفر أن يُشرَك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء (١) .

على الكافر اللعنة

اللعن : هو الطرد من رحمة الله تعالى بسبب سخطه .

ـ قال الله تعالى في خطاب الكافرين :

أفكلّما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذّبتم ، وفريقاً تقتلون ؟

وقالوا : « قلوبنا غُلْف » ـ أي عليها غشاوة ـ

بل لعنهم الله بكفرهم ، فقليلاً مايؤمنون (٢) .

---

(١) ٤٨ ـ النساء .

(٢) ٨٧ و ٨٨ ـ البقرة .

ـ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

خالدين فيها ، لا يُخفّف عنهم العذاب ، ولا هم يُنظَرون (١) .

ـ لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

كانوا لا يتناهَون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون (٢) .

ـ إن الله لعن الكافرين ، وأعدّ لهم سعيرا (٣) .

ـ وذمّ الله تعالى اليهود ، ثم قال :

أولئك الذين لعنهم الله ، ومَن يلعنِ الله فلن تجد له نصيرا (٤) .

ـ وفي الحديث الشريف ، وصفٌ مشهد من مشاهد القيامة ، وذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) :

(١) ١٦١و١٦٢ ـ البقرة . (٢) ٧٨و٧٩ ـ المائدة .
(٣) ٦٤ ـ الأحزاب . (٥) ٥٢ ـ النساء .

. . . وأما الكفار ، فيُنادَى على رءوس الأشهاد :

هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنـــة الله على الظالمين (١) .

رأس من يستحق اللعنة ابليس

قال الله تعالى بعدما أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، فسجدوا إلا إبليس :

قال : ياإبليس مالك أن لاتكون مع الساجدين ؟

قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصـال من حمأ مسنون .

قال : فاخرج منها ، فانك رجيم - أي ملعون مشئوم - وأن عليك اللعنةَ إلى يوم الدين (٢) .

قال بعض السلف : إياك والقياس - أي احـذره وتبصّر فيه - فان أول من قاس إبليس ، قاس فأخطأ :

---

(١) ١٨ - هود . والحديث رواه البخاري ومسلم .
(٢) ٣٢ - ٣٥ - الحجر .

قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين (١) .

ما يجوز لعنه

يجوز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين .

فيقال : ألا لعنة الله على الكاذبين .

ولعنة الله على الظالمين .

ولعنة الله على الكافرين .

وقد لعن رسول الله ﷺ بعض العصاة بسبب معاصيهم :

ففي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال :

لعن الله الواصلة ـ وهي التي تصل شعرها بشعر آدمي ـ والمستوصلة ـ وهي التي تطلب من غيرها فعل ذلك ـ

وأنه لعن آكل الربا وموكله ، وشاهديه ، وكاتبه .

---

(١) ١٢ ـ الاعراف و ٧٦ ـ ص .

وأنه لعن المصوِّرين ـ الذين يصوِّرون ذوات الأرواح من إنسان وحيوان ـ

وقال : لعن الله السارق يسرق البيضة .

وقال : لعن الله من لعن والديه .

ولعن الله من ذبح لغير الله .

وقال : لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

ـ أي يتعبدون بعبادة القبور ـ

وأنه لعن المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال(١) .

مالا يجوز لعنه

لايجوز لعن إنسان بعينه ، ولا دابة .

واللعن في الأصل معدود من آفات اللسان .

وفي الحديث الشريف : لاينبغي لصدِّيق أن يكون

---

(١) بعض هذه الروايات فى البخاري ومسلم ، وبعضها في أحدهما .

لعّانا (١) .

لا يكون اللعّانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة (٢).

ليس المؤمن بالطعّان ، ولا اللعّان ، ولا الفاحش، ولا البذيء (٣) .

إن العبد إذا لعن شيئاً ، صعدت اللعنة إلى السماء ، فتُغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض ، فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمناً وشمالاً ،فاذا لم تجد مساغاً - أي طريقاً - رجعتْ إلى الذي لُعِن ، فان كان أهلاً لذلك ، وإلا رجعت إلى قائلها (٤) .

وجيء برجل شرب الخمر ، فأقيم عليه الحدّ ،

فقال بعضهم : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به :

فنهاه النبي ﷺ ، وقال :

لا تكونوا عونَ الشيطان على أخيكم (٥) .

وبينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، وامرأة

(١و٢) مسلم .
(٣) الترمذي .
(٤) أبو داود .
(٥) البخاري ومسلم .

من الأنصار على ناقة ، فضجرتْ ـ أي من صعوبتها ـ فلعنتْها .

فسمع ذلك رسول الله ﷺ ، فقال :

خذوا ماعليها ، ودعوها فانها ملعونة .

قال الراوي : فكأني أراها الآن تمشي في الناس ، مايَعرِض لها أحد (١) .

والمراد النهي أن تصاحبهم تلك الناقة ، وليس فيه نهي عن بيعها ، وذبحها ، وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ . وفي ذلك تأديب وأيّ تأديب !

الكفار يلعن بعضهم بعضا

ـ قال الله تعالى في خطاب الكافرين :

ثم يومَ القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ... (٢)

أيْ تتبرّأ الأوثان يوم القيامة من عبّادها ، والرؤساء

---

(١) مسلم (٢) ٢٥ ـ العنكبوت .

من أتباعهم ، والأتباع من رؤسائهم ، ويلعن بعضهم بعضا .

ـ قال الله تعالى فيهم :

وقالوا : ربنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا .

ربنا آتهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيرا (١) .

ـ وقال تعالى في خطاب الكافرين يوم القيامة :

قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار .

كلما دخلت أمة لعنت أختها . حتى إذا اداركوا

ـ أي اجتمعوا ـ فيها جميعا ، قالت أخراهم لأولاهم :

ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذاباً ضعفاً من النار .

قال : لكل ضعفٌ ولكن لاتعلمون (٢) .

---

(١) ٦٧ و ٢٨ ـ الاحزاب . (٢) ٣٨ ـ الاعراف .

نقمة الكافر على من أضله

ـ قال الله تعالى في نقمة الكافر في الآخرة على من أضله :

وقال الذين كفروا : ربنا أرنا اللذين أضلاّنا من الجن والانس ، نجعلْهما تحت أقدامنا ، ليكونا من الأسفلين(١).

يسألون الله تعالى ذلك حتى يشتفوا منهم ، بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ، لأنهم كانوا سبب ضلالهم وشقائهم .

ـ وقال تعالى ، ومَن يَعش عن ذكر الرحمن نقيّضْ له شيطاناً فهو له قرين .

وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ، ويحسبون أنهم مهتدون.

حتى إذا جاءنا قال : ياليت بيني وبينك بُعدَ المشرقين ، فبئس القرين !

ولن ينفعكم اليوم إذا ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون (٢) .

---

(١) ٢٩ ـ فصلت .

(٢) ٣٦ ـ ٣٩ ـ الزخرف.

فالقرين شيطان يقارن صاحبه من الانس في الدنيا، فيمنعه من الحلال ، ويبعثه على الحرام ، وينهاه على الطاعة ، ويأمره بالمعصية .

ـ وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

خرج النبي ﷺ من عندي ليلاً فغِرتُ عليه ، فجاء فرأى ماأصنع ـ أي من أثر الغَيرة ـ

فقال : مالكِ ياعائشة ؟ أغِرتِ ؟

قالت : ومالي لايغار مثلي على مثلك ؟

قال : أقد جاءك شيطانكِ ؟

قالت : يارسول الله ! أوَ معي شيطان ؟ !

قال : نعم .

قالت : ومع كل إنسان ؟ !

قال : نعم .

قالت : ومعكَ يارسول الله ؟ !

قال : نعم ، ولكنَّ ربي أعانني عليه حتى أسلم (١) .

---

(١) مسلم .

الشيطان يورّط في الكفر

الشيطان عدوّ الانسان ، ومن عداوته وسوسته له ، وتثبيطه عن الطاعة ، وتزيين المعصية له ، وتوريطه في الكفر .

قال الله تعالى : كمَثَل الشيطان إذ قال للانسان « اكفرْ » .

فلما كفر قال : إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين .

فكان عاقبَتهما أنهما في النار خالدَين فيها ، وذلك جزاء الظالمين (١) .

هذا ضربُ مثل للمنافقين واليهود ، في تخاذلهم وعدم الوفاء في نصرتهم .

ـ وقال الشيطان لما قُضيَ الأمر .

ـ أي صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ـ :

---

(١) ١٦ و ١٧ ـ الحشر .

إن الله وعدكم وعدَ الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان ليَ عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمُصْرِخكم - أي منقذكم - وما أنتم بمصرِخيّ . إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل - إن الظالمين لهم عذاب أليم (١) .

الكافر محروم من المغفرة

قال الله تعالى :

إن الله لا يغفر أن يُشرَك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (٢) .

إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم .. (٣) .

إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم .. (٤)

وقال تعالى في المنافقين : لن يغفر الله لهم ...(٥)

---

(١) ٢٢ - إبراهيم . (٢و٣) ٤٨ و ١٦٨ - النساء .
(٤) ٣٤ - محمد «ص» . (٥) ٦ - المنافقون .

النهي عن التشبه بالكافر

لقد حذر النبي ﷺ من تقليد الكافرين ، فقال : لتتبعُنّ سَنَن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحرَ ضبّ لدخلتموه .

قالوا : آليهود والنصارى ؟

قال : فمَن (١) ؟ ـ أي فمن غيرهم ـ ؟

وهـا نحن أولاء نرى كثيراً من المسلمين ، كفروا بدينهم الحق ، لما رأوا الأجنبي الكافر ، كفر بدينه الباطل .

وقال تعالى : ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمـــد فقستْ قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون (٢) .

وفي قوله تعالى : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب » نهيٌ عن مطلَق مشابهتهم .

---

(١) البخاري ومسلم . (٢) ١٦ ـ الحديد .

فالبعد عن التشبه بالكافرين في شيء من أقوالهم وأفعالهم ومظاهرهم وأهوائهم ... من المقاصد والغايات التي جاء بها الاسلام .

وقد أعرض النبي ﷺ عن أمور ، ونهى عنها ، مجانبةً للتشبه بالكافرين :

- لما شاور النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم ، فيما يجمع به الناس للصلاة ، ذُكر له البوق ، فلم يعجبه ذلك، وقال : هو من أمر اليهود .

وذُكر له الناقوس ، فقال : هو من أمر النصارى

وانصرفوا قبل أن يجتمعوا على رأي ، فرُئي الأذان في المنام ، وشرع الأذان (١) .

- ونهى النبي ﷺ عن الصلاة حين تطلع الشمس حتى ترتفع ، وقال :

حينئذ يسجد لها الكفار .

ونهى عن الصلاة حين تغرب الشمس ، وقال :

---

(١) أبو داود .

حينئذ يسجد لها الكفار (١) .

- ونهى النبي ﷺ عن الاشتمال - أي الالتفاف - بالثوب في الصلاة ، فقال :

لا تشتملوا كاشتمال اليهود (٢) .

- وقد سنّ النبي ﷺ للصائم طعام السحور ، وقال:

فصْلُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَحَر (٣) .

- وصام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء - أي العاشر من المحرم . . . وأمر بصيامه ، فلما رأى اليهود والنصارى تعظم هذا اليوم ، وتصومه ، قال :

فاذا كان العام المقبل - إن شاء الله - صمنا اليوم التاسع - أي مع العاشر - .

فلم يأتِ العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ (٤).

- وفي الحديث الشريف :

(١و٣) مسلم . (٢) البيهقي .
(٤) مسلم وأبو داود .

"احفوا الشارب ، وأوفوا اللحى (١) .

"جزّوا الشوارب ، وأرخوا اللحى ، خالفوا المجوس .(٢)

ـ لا تسلّموا تسليم اليهود ، فان تسليمهم بالرءوس والأكف والاشارة .

ـ نظّفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود (٤) .

ـ من تشبّه بقوم فهو منهم (٥) .

ثبت بهذا كله أن مخالفة الكفار ، وترك التشبه بهم من مقاصد الشريعة الاسلامية العليا ، فعلى المسلمين رجالاً ونساء أن يراعوا ذلك في شئونهم كلها .

وعلى المسلمين أن يستيقظوا من غفلاتهم ، ويعلموا أنهم منساقون في تيار التقليد الأجنبي الأعمى ، من حيث يدرون ، ومن حيث لا يدرون :

فحلْقُ الرجال اللحى ، وإطالةُ الشوارب أحياناً ، وتقصيرها أحياناً ، والتفنّن في أشكالها ، والتخنفس ،

---

(١) البخاري . (٢) مسلم . (٣) النسائي .
(٤) الترمذي . (٥) أبو داود .

وخروج النساء سافرات ، ولبسهن لبسة الرجال ، واختلاطهن بالرجال ... كل ذلك من التقليد الأعمى ، الذي ينبغي أن يربأ المسلم بنفسه عن الانسياق فيه ، والاسترسال مع الكافر في أهوائه .

والمسلم الحق ينبغي أن يكون معتزاً باسلامه ، متمسكا بسننه وآدابه ، متميزاً في مظهره ، متميزاً في شخصيته ، لا يذوب في شخصية غيره ، ولا ينحط إلى مستوى التقليد الأعمى الذميم .

النهي عن الاستغفار للكافرين

نهى الله تعالى النبي ﷺ والمؤمنين ، أن يستغفروا للكافرين ، فقال عز وجل :

ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم .

وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم

لأوّاه حليم (١) .

والموعدة التي وعد بها إبراهيم عليه السلام أباه ، هي قوله حين دعاه إلى الايمان فأعرض :

سلامٌ عليك ، سأستغفر لك ربي ... (٢)

تكذيب الكافر بالآخرة

لما كفر الكافر بالله وبشرائع الله ، أنكر الآخرة وكذّب بها ، واستبعد أن تحشر الأجساد بعد فنائها :

ـ وقال الذين كفروا : لا تأتينا الساعة .

قل : بلى وربي لتأتينّكم ...(٣)

ـ وقال الذين كفروا : هل ندلّكم على رجل ينبّئكم إذا مُزّقتم كلَّ ممزّق إنكم لفي خلق جديد ؟!

أفترى على الله كذباً ، أم به جِنّة ؟ ـ أي جنون ـ

بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد(٤)

---

(١) ١١٣و١١٤ ـ التوبة . (٢) ٤٧ ـ مريم .
(٣) ٣ ـ سبأ . (٤) ٧و٨ ـ سبأ .

ـ زعم الذين كفروا أنْ لن يُبعثوا .

قل : بلى وربي لتُبعَثُنّ ، ثم لتُنبَّؤُنّ بما عملتم، وذلك على الله يسير (١) .

ـ وقال الذين كفروا : أئذا كنا تراباً وآباؤنا ، أئنا لمخرَجون ؟

لقد وُعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين (٢) .

حكّموا العقل السليم !

إن العقل السليم يقضي بمصير الناس إلى يوم يحكم الله تعالى فيه بين عباده ، فيأخذ للمظلوم من الظالم ، ويكافئُ فيه المحسن ، ويجازي فيه المسيء .

ـ فالوالدان لا يستوي عندهما أولادهما : فشتان بين ولد بار محسن ، مبادر إلى مرضاة والديه ، وولد عاقٍّ مسيء ، متقاعد عن خدمتهما !

---

(١) ٧ ـ التغابن . (٢) ٦٧ و ٦٨ ـ النمل .

ولكلٍ عندهما منزلة .

ـ والاستاذ لا يستوي عنده طلابه : فشتان بين طالب مجدٍّ مهذب أديب ، وطالب خمول شرس مسيء .

ولكلٍ منهما عنده منزلة .

ـ وربّ العمل لا يستوي عنده عماله : فشتان بين عامل أمين مخلص نشيط ، وعامل خائن متقاعس خمول .

ولا شك أن لكل واحد منهما عنده منزلة .

ـ والله تعالى أجلّ وأحكم وأعدل من أن يستوي عنده عباده : فشتان بين مؤمن تقيّ طائع ، وكافر عاصٍ أثيم .

ولا يقبل العقل السليم أن يكونا عنده بمنزلة سواء .

وقد أجمعت العقول البشرية على استحقاق المسيء العقوبة ، واستحقاق المحسن المكافأة والمثوبة .

وقد أعلن الله تعالى في كتابه الكريم فقال :

ـ إن للمتقين عند ربهم جناتِ النعيم .

أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون(١)؟

- أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوون (٢).

- أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواءً محياهم ومماتُهم ؟ ساء ما يحكمون (٣).

- وما يستوي الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا المسيء ... (٤).

سبب تكذيب الكافر بالآخرة

سبب تكذيب الكافرين بالآخرة ، كفرهم بالله تعالى أولاً ، ثم إنكارهم لقدرته ، واستبعادهم أن تُحشر الأجساد بعد الفناء.

مع أن الانسان المخلوق لا بد له من خالق.

والذي بدأ الخلق ، قادر أن يعيده مرة أخرى.

(١) ٣٥ - ٣٧ - ن.

(٢) ١٨ - السجدة.

(٣) ٢١ - الجاثية.

(٤) ٥٨ - غافر.

قال الله تعالى : وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (١) .

ـ وقال تعالى : أوَلم يَرَ الانسان أنا خلقناه من نطفة، فاذا هو خصيم مبين ؟

وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال :

مَن يحي العظام وهي رميم ؟!

قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة ... (٢) .

جاء أُبيّ بن خلف بعظم حائل ـ أي بالٍ مفتّت ـ فقـال :

يامحمد ! أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ ـ أي بلي ـ ؟!

فقال النبي ﷺ : نعم ، ويبعثك الله ، ويدخلك النار.

ونزلت هذه الآيات .

ـ ثم إن الله تعالى الذي خلق الانسان ، وبدأ خلقه في بطن أمه نطفة ، ثم طوّره علقة ، ثم أخرجه طفلا ...

(١) ٢٧ ـ الروم .　(٢) ٧٧ ـ ٧٩ ـ يس .

والذي يحيي الأرض بوابل المطر ، فتنبت من كل زوج بهيج... وذلك مشاهد محسوس ، قادر على أن يعيد الانسان بعد موته:

قال الله تعالى : يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يُتوفّى ، ومنكم من يُرَدْ إلى أرذل العمر - وهو الخَرَف - لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً .

وترى الأرض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج .

ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير .

وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث مَن في القبور (١) .

---

(١) ٥ - ٧ الحج .

ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ـ أي ساكنة مطمئنة لا نبات فيها ـ فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت .

إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير (١) .

ندامة الكافر في الآخرة

ـ قال الله تعالى : إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب أليم ، وما لهم من ناصرين (٢) .

ـ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال :

ربّ ارجعونِ لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ... (٣)

ـ ويومَ يعضّ الظالم على يديه ، يقول :

يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً .

يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً .

---

(١) ٣٩ ـ فصلت .
(٢) ٩١ ـ آل عمران .
(٣) ٩٩ ـ المؤمنون .

لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للانسان خذولاً (١) .

ـ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟

يومئذ يودّ الذين كفروا وعصَوُا الرسول لو تُسوّى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا (٢) .

ـ إنا أنذرناكم عذاباً قريبا .

يوم ينظر المرء ماقدّمت يداه ، ويقول الكافر : يا ليتني كنت ترابا (٣) !

ـ والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يُقضَى عليهم فيموتوا ، ولا يخفّف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور .

وهم يصطرخون فيها : ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل .

(١) ٢٧ ـ ٢٩ ـ الفرقان . (٢) ٤١و٥٢ ـ النساء .
(٣) ٤٠ ـ النبأ .

أوَلم نعمّركم مايتذكر فيه مَن تذكر ، وجاءكم النذير؟

فذوقوا ، فما للظالمين من نصير (١) .

قال المفسرون : النذير هنا معناه : الشيب .

وفي الحديث الشريف : أعذر الله إلى امرىء أخَّر أجله حتى بلّغه ستين سنة (٢) .

ومعنى أعذر إليه : بلغ به أقصى العذر .

ومنه قولهم : قد أعذر من أنذر .

أي أقام عذر نفسه في تقديم إنذاره .

فمن عمّره الله تعالى ستين سنة ، لم يبقَ له عذر ، لأن الستين قريب من معترك المنايا ، وهو سنّ الانابة والخشوعَ وترقبِ المنية ، ولقاءِ الله تعالى .

ففيه إعذار بعد إعذار :

الأول بالنبي ﷺ .

والثاني بالموت في الأربعين إلى الستين .

---

(١) ٣٦ ـ ٣٧ ـ فاطر . (٢) البخاري .

فكيف بمن جاوزها ؟

ورحم الله القائل :

ليس بعد السبعين إلا الرحيلُ ... فإلامَ التسويف والتعليلُ ؟
لم يُفِدْكَ الكثيرُ من مهلة العمـر ، فماذا عسى يفيد القليلُ ؟
كم نذيرٍ أتاك شيبٌ وضعفٌ ... وسُهادٌ لا عن هوى، ونحولُ
ليت شعري إذا سئلت عن الغفـلة من بعد هـذه ماتقول ؟

ورحم الله الآخر إذ يقول :

حكمُ المنية في البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرارِ
بينا يُرى الانسان فيها مخبِراً ... حتى يُرى خبراً من الأخبار

وفي الحديث الشريف : أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من تجاوز ذلك(١) .

وقال العلماء : الشيب والحمى وموت الأهل والأقران... كل ذلك إنذار بالموت .

وهذا كقول الشاعر :

---

(١) ابن ماجه .

رأيت الشيب من نُذُر المنايا لصاحبه، وحسبُك من نذيرِ

وقال رجل لبعض السلف : عظني .

قال : أحيٌّ أبواك ؟

قال : لا .

قال : ففيهما عظة .

أي كما أتاهما الموت ، فهو آتيك ، ومن كان كذلك استعدّ له .

من وعيد الكافرين وتهديدهم

قال الله تعالى على وجه التبكيت والتهديد :

قل : آمنوا به ـ أي بالقرآن ـ أو لا تؤمنوا . .(١)

وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ... (٢)

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب

(١) ١٠٧ ـ الاسراء . (٢) ٢٩ ـ الكهف .

النار ، هم فيها خالدون (١) .

يومَ تبيضّ وجوه ، وتسْوَدّ وجوه :
فأما الذين اسودتْ وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم؟
فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٢) .

إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم نارا ، كلما نضجتْ جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب...(٣)

والذين كفروا لهم شراب من حميم ، وعذاب أليم بما كانوا يكذبون (٤) .

لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، ولا هم ينصرون .

بل تأتيهم بغتة فتبهَتُهم ، فلا يستطيعون ردّها ، ولا هم يُنظَرون (٥) .

وفي الحديث الشريف : فاذا أدخل الله أهلَ الجنة

---

(١) ٣٩ ـ البقرة .
(٢) ١٠٦ ـ آل عمران .
(٣) ٥٦ ـ النساء .
(٤) ٤ ـ يونس .
(٥) ٣٩ و ٤٠ ـ الانبياء .

الجنة ، وأهل النار النار ، أُتيَ بالموت ، فيوقف على السور الذي بين الجنة والنار .

ثم يقال : يا أهل الجنة ! فيطّلعون خائفين .

ثم يقال : يا أهل النار ! فيطّلعون مستبشرين يرجون الشفاعة .

فيقال لأهل الجنة وأهل النار : هل تعرفون هذا ؟

فيقولون : قد عرفناه ، وهو الموت الذي وُكّل بنا .

فيُضجع فيُذبح على السور الذي بين الجنة والنار .

ثم يقال : يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا موت .

ثم قرأ : وأنذرهم يوم الحسرة ، إذ قُضي الأمر ، وهم في غفلة ، وهم لا يؤمنون (١) .

وأشار إلى الدنيا .

وفي الحديث الشريف : يؤتى بأنعم أهل الدنيا من

---

(١) ٣٩ ـ مريم . والحديث رواه مسلم والترمذي .

أهل النار يوم القيامـــة ، فيُصْبَغ ـ أي يُغمس ـ في النار صبغة ، ثم يقال :

يابن آدم ! هل رأيت خيراً قط ؟ .

هل مرّ بك نعيمٌ قط ؟

فيقول : لا والله يارب ... (١)

وفي حديث آخر : الدنيـا سجن المؤمن ، وجنة الـكافر (٢) .

رُوِي أن الامام أبا حنيفة رضي الله عنه ، كان راكباً على فرس ، في ثياب جميلة ، وعليه أثر النعمـة ، فاعترضه يهودي فقير ، في ثياب بالية ، وجسدٍ قذر .

وقال : ياعالم المسلمين أريد أن أسألك .

فقال : سل .

قال أصحيح أن نبيكم قال :

الدنيا سجن المؤمن وجنة الـكافر ؟

قال : نعم .

(١و٢) مسـلم .

فقال بلهجة الساخر : ففي أيّ جنة أنا ؟ وفي أيّ سجن أنت •

فقال له الامام : ياهـذا : أنا بالنسبة لما أعدّ الله تعالى لي في الآخرة من النعيم ، كأني الآن في سجن •

وأنت بالنسبة لما أعدّ الله تعالى لك في الآخرة من العذاب ، كأنك الآن في جنة .

فأفحم اليهودي وسكت .

تشهد على الكافر أعضاؤه

ـ قال الله تعالى يصف مشهداً من مشاهد القيامـة ، تشهد فيه على الـكافر أعضاؤه :

يومَ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (١) .

ـ ويومَ يُحشَر أعـداء الله إلى النار فهم يوزَعون ـ أي يحبسون ويساقون ـ .

---

(١) ٢٤ ـ النور .

حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون .

وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟

قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة ، وإليه تُرجعون .

وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون .

وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ، أرداكم - أي أهلككم - فأصبحتم من الخاسرين (١) .

- وعن أنس رضي الله عنه أنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك .

فقال : تدرون مِمّ أضحك ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : من مخاطبة العبد ربه .

(١) ٢٠ - ٢٤ - فصلت .

يقول : ياربّ ، ألم تُجِرني من الظلم ؟

فيقول : بلى .

فيقول : لأني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني .

فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا .

فيُختَم على فيه ـ أي فلا يقدر على النطق ـ

فيقول لأركانه : انطِقي .

فتنطقِ بأعماله ، ثم يُخلّى بينه وبين الكلام .

فيقول : بُعداً لكُنّ وسُحقا ، فعنكُنّ كنت أناضل (١) .

وهذا تفسير لقوله تعالى : اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون (٢) .

---

(١) مسلم .   (٢) يس ـ ٦٥ .

عاقبة الكافرين النار

قال الله تعالى : وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً.
حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، قال لهم خزنتها :
ألم يأتكم رسل منكم ، يتلون عليكم آيات ربكم ،
وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟

قالوا : بلى ، ولكنْ حقّت كلمة العذاب على الكافرين.

قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيهـــا ، فبئس مثوى المتكبرين (١) .

وفي الحديث الشريف :

من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار (٢) .

النار وأبوابها وأوصافها

ـ قال الله تعالى : وإن جهنم لموعدهم أجمعين ـ يعني الـكافرين ـ .

---

(١) ٧١ و ٧٢ ـ الزمر . (٢) مســلم .

لهـا سبعة أبواب ـ أي أطباق ـ لـكل باب منهم جزء مقسوم [١] .

ـ وفي الحديث الشريف : ناركم هذه التي يوقِد ابنُ آدم ، جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم .

قالوا : والله إن كانت لـكافية يا رسول الله !

قال : فانها فُضّلت عليهـا بتسعة وستين جزءاً ، كلّها مثل حرها [٢] .

ـ اشتكتِ النار إلى ربها ، فقالت :

رب أكل بعضي بعضاً .

فأذِنَ لها بنفَسين : نفَسٍ في الشتاء ، ونفَس في الصيف .

فهو أشد ما تجدون من الحر ، وأشد ما تجدون من الزمهرير [٣] .

ـ يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل

---

(١) ٤٤ ـ الحجر .　　　(٢) البخاري ومسلم والترمذي .
(٣) البخاري ومسلم .

زمام سبعونْ ألف ملك (١) .

ـ وكان النبي ﷺ مع بعض إذ سمع وَجْبَة ـ أي سقطة عظيمة ـ

فقال : تدرون ما هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هــــذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً ـ أي سبعين عاماً ـ فهو يهوي في النار حتى انتهى إلى قعرها (٢) .

من صفة أهل النار

في الحديث الشريف : ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع (٣) .

ضرس الكافر ، أو ناب الكافر ، مثل أُحُد ، وغِلظ جلده مسيرة ثلاث (٤) .

---

(١) مسلم والترمذي .   (٢و٤) مسلم .

(٣) البخاري ومسلم .

تلفح وجوههم النار ، وهم فيها كالحون .

قال : تشويه النار ، فتقلّص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سُرّته (١) .

شراب أهل النار وطعامهم

قال الله تعالى في شراب أهل النار :

ـ والذين كفروا لهم شراب من حميم ـ أي ماء حار ـ وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون (٢) .

ـ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها ـ أي سورها ـ وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل ، أي عكر الزيت ـ يشوي الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا (٣) ـ أي منزلاً ـ

ـ وسُقوا ماء حميما فقطّع أمعاءهم (٤) .

---

(١) ١٠٤ ـ المؤمنون والحديث رواه الترمذي .
(٢) ٤ ـ يونس . (٣) ٢٩ ـ الكهف .
(٤) ١٥ ـ محمد «ص» .

- خذوه فغُلّوه - أي شُدّوه بالأغلال - ثم الجحيم صَلّوه - أي اجعلوه يَصلى الجحيم - ثم في سلسلة ذَرْعها سبعون ذراعاً فاسلكوه - أي أدخلوا فيه سلسلة - إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يَحُضّ على طعام المسكين .

فليس له اليوم ها هنا حميم - أي شراب - ولا طعام إلا من غِسْلين - هو الضريع الرطب - لا يأكله إلا الخاطئون (١) .

- وبعد أن ذكر الله تعالى وصْف نعيم أهل الجنة قال:

أذلك خير أم شجرة الزقوم - شجرة كريهة منتنة - إنا جعلناها فتنة للظالمين .

إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم .

طَلْعُها - أي ثمرها - كأنه رءوس الشياطين - أي لقبحها -

فانهم لآكلون منها ، فمالئون منها البطون .

ثم إن لهم عليها لشَوْباً من حميم (٢) .

- ثم إنكم أيها الضالون المكذّبون .

---

(١) ٣٦ و ٣٧ - الحاقة . (٢) ٦٢ - ٦٧ - الصافات .

لآكلون من شجرٍ من زقوم .
فمالئون منها البطون .
فشاربون عليه من الحميم .
فشاربون شرب الهيم ـ الابلِ العِطاش ـ
هذا نُزُلهم ـ أي ضيافتهم ـ يوم الدين .
نحن خلقناكم ، فلولا تصدّقون (١) .
ـ إن لدينا أنكالاً وجحيما .
وطعاماً ذا غُصّة وعذابا أليما (٢) .
ـ لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شراباً .
إلا حميماً وغسّاقا ـ أي ما يُغسَق أي يسيل من صديد أهل النار ـ ، جزاءً وِفاقا (٣) .
ـ أي موافقاً لسوء أعمالهم ـ
ـ ليس لهم طعام إلا من ضريع ـ نبتٍ ذي شوك ـ
لا يسمن ولا يغني من جوع (٤) .

(١) ٥١ ـ ٥٧ ـ الواقعة . (٢) ١٢ و ١٣ ـ المزمل .
(٣) ٢٤ و ٢٥ ـ النبأ . (٤) ٦ و ٧ ـ الغاشية .

- وفي الحديث الشريف : إن الحميم ليُصب على رءوسهم ، فينفذ حتى يخلص إلى جوفه ، فيَسْلُت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه ، وهو الصَّهْر ، ثم يعاد كما كان (١).

وهذا تفسير لقوله تعالى في وصف عذاب أهل النار:

يُصَبّ من فوق رءوسهم الحميم .

يُصهَر به ما في بطونهم والجلود .

ولهم مقامع - أي سياط - من حديد (٢) .

- وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية :

اتقوا الله حقَّ تُقاته ، ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون (٣) .

ثم قال : لو أن قطرة من الزقوم ، قطرت في دار الدنيا ، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامَه (٤) ؟!

(١ و٤) الترمذي . (٢) ٢١ - الحج .

(٣) ١٠٢ - آل عمران .

أهون أهل النار عذابا

في الحديث الشريف : إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، لرجلٌ توضع في أخمَص قدميه (١) جمرتان ، يغلي منها دماغه (٢) .

نعوذ بالله من عذاب الله !

نداء !

فيا أيها الناس !

آمِنوا بالله وباليوم الآخر .

احذروا الكفر ، وما يؤدّي إليه من المكفّرات :

لا تستهينوا بفرائض الله ، ولا تستحلّوا ماحرّم الله ، ولا تزدروا سنة رسول الله .

عظّموا ما عظم الله ، وحقّروا ما حقر الله .

---

(١) أخمص القدم : باطنه الذي لا يصيب الارض .

(٢) البخاري ومسلم .

واخضعوا لشرع الله ، وارضَوْا بأحكام دين الله .

احذروا التشبه بالكافرين ، ولا تتصفوا بأوصافهم .

واجتنبوا صحبتهم ، ولا تعبئوا بسخريتهم ، ولا تطيعوهم في شأن ، ولا توالوهم بحال .

واطلبوا النجاة ، واحذروا موجبات الهلاك .

تعهّدوا إيمانكم ، واحرصوا عليه ، واطردوا من قلوبكم الوساوس ، واقتلعوا منها الشبهات .

واتقوا الله ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون .

إن الدين عند الله الاسلام (٢) .

ومن يبتغِ غير الاسلام ديناً فلن يُقبَل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين (٣) .

---

(١) البخاري ومسلم .   (٢) ١٩ _ آل عمران .

(٣) ٨٥ _ آل عمران .

دعاء

ربنا أفرغْ علينا صبراً ، وثبتْ أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

ربنا أفرغ علنا صبراً ، وتوفّنا مسلمين .

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين .

ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين .

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا .

واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم .

فاطرَ السموات والأرض ، أنت وليّي في الدنيا والآخرة ، توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين .

ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابَها كان غَراما .

اللهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك .

اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، واسمك العظيم ، من الكفر والفقر .

اللهم احفظني بالاسلام قاعدا ، واحفظني بالاسلام راقداً ، ولا تُشمت بي عدواً ولا حاسداً .

اللهم أعطني إيماناً صادقاً ، ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمةً أنال بها شرفَ كرامتك في الدنيا والآخرة .

اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدَّين والفقر ، وأعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من فتنة الدجال .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحان ربك ربِ العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .



المحتوى

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
١٦٤	شطط الكافر وعناده .
١٧٦	التكذيب بالمعجزات .
	١ـ ناقة صالح عليه السلام .
١٧٧	٢ـ ابراهيم عليه السلام والنار .
١٧٩	٣ـ معجزة موسى عليه السلام .
١٨٠	٤ـ من معجزات عيسى عليه السلام .
١٨١	٥ـ من معجزات نبينا محمد ﷺ .
١٨٣	سخرية الكافر من المؤمن .
١٨٥	الكافر لاينفعه عمل .
١٩١	لاتنفع الكافر عظة .
١٩٥	الكافر في غرور .
١٩٩	استدراج الكافر .
٢٠١	تعريض الكافر بالمؤمن .
٢٠٢	الكافر مغلوب منهزم .
٢٠٧	الغلظة على الكافرين .
٢٠٨	إعلان البراءة من الكافرين .

لفت نظر

يسر مكتبة الهدى بحلب ، أن تقدم للقراء الكرام ، من مؤلفات فضيلة الأستاذ أحمدعز الدين البيانوني رحمه الله تعالى الكتب الآتية :

سلسلة تحت عنوان من هدي الاسلام :

١ - شؤم المعصية وبركة التقوى. (نفد)
٢ - هذا الانسان ! «
٣ - الدعوة إلى الاسلام . «
٤ - الفـتن . «
٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . «
٦ - القلب . «
٧ - منهاج التربية الصالحة . «
- من محاسن الاسلام . «
٨ - فضيلة الدعاء والذكر .

سلسلة العبادات :

١ـ أحكام الطهارة والصلاة طبعة ثانية.
٢ـ أحكام الزكاة والصيام والحج .
على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه

سلسلة العقائد :

١ ـ الايمان بالله تعالى .
٢ ـ الايمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام .
٣ ـ الايمان بالملائكة .
٤ ـ الايمان باليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر .
٥ ـ الايمان ، خصائصه ، علاماته ، ثمراته .
٦ ـ الكفر والمكفرات .

وسيصدر قريباً تحت عنوان :

من هدي الاسلام :

٩ ـ الحق والباطل .
١٠ـ التوبة .

١١ - العمل الصالح.
١٢ - الرؤى والاحلام.
١٣ - الهدى والضلال.
١٤ - العشر المهلكات.

★ ★ ★



من منشوراتنا : كتاب

دراسات في الاختلافات الفقهية

بقلم الدكتور : محمد أبو الفتح البيانوني

جاء هذا الكتاب محللاً لظاهرة الاختلافات الفقهية ، ومبيناً حقيقتها ، وتاريخ نشأتها ، والأسباب المؤدية إليها .. وحاكماً في مواقف الناس المختلفة منها ... وداعياً إلى تفهمها تفهماً كاملاً ، يجيب على أسئلة المستشكلين ، ويسد الطريق أمام المغرضين ... وذلك بأسلوب سهل مبسط ، يناسب عامة المثقفين ، وبمادة علمية دقيقة ، يحتاج إليها المتخصصون ...

طبع في : مطبعة أمية - حلب

☎ ٣٧٢٩٠ ، ٣٧٢٩١